إخوان الصفا
وفلسفة الأخلاق

إعداد

د. عبد العزيز سيد هاشم

دكتوراة في الفلسفة الإسلامية

كلية دار العلوم جامعة القاهرة

مقدمة

لا ينكر عاقل أهمية الأخلاق بالنسبة للفرد وللمجتمع على السواء؛ وذلك لما لها من أثر عظيم فى تهذيب الفرد، وإصلاح المجتمع؛ ومن ثم كانت هدفًا رئيسيًّا للرسالات السماوية كلها، واهتم بها المفكرون والحكماء والمصلحون في كل عصر

ورغم أن الغرض من هذا البحث هو تناول فلسفة إخوان الصفا الأخلاقية فإنه يتحتم علينا أن نعرض لفلسفتهم العامة ولنشأتهم – ولو بشيء من الإيجاز – ؛ وذلك لنقف على العناصر الأساسية لتلك الفلسفة من ناحية، وليتسنى لنا الوقوف على مدى مطابقة الجانب النظري لهذا الفكر لجانبه العملي من ناحية أخرى.

وسوف أحاول إبراز جانب الأخلاق عند إخوان الصفا باعتبارهم نموذجًا لفلاسفة الأخلاق الذين يمثلون – مع من سبقهم – الاتجاه الفلسفي في دراسة الاخلاق.

ومع وجود كثير من الكتب والأبحاث حول إخوان الصفا – وهي جهود مشكورة لأصحابها، وقد استفدت منها، وسأذكرها في ثنايا البحث – فإنه مازال الجانب الأخلاقي عندهم بحاجة إلى دراسة، وما زالت تبرز لنا تساؤلات حول فكرهم الأخلاقي، وسوف أحاول أن أجيب عن هذه التساؤلات، وأسد هذه الثغرة من خلال هذا البحث، والذي تناولت فيه أربعة مباحث، كما يلي:

المبحث الأول: التعريف بإخوان الصفا ورسائلهم: وتناولت فيه التعريف بإخوان الصفا من خلال الحديث عن نشأتهم، وعقائدهم وأفكارهم، ورسائلهم، وعلاقتهم بالإسماعيلية والقرامطة.

المبحث الثاني: مفهوم الأخلاق عند إخوان الصفا: وتناولت فيه: تعريف الأخلاق عندهم، وبيان أهميتها، وطبيعة الأخلاق، ومفهوم الخير والشر، وطبيعة النفس الإنسانية أو قواها، ومراتب الناس في أخلاقهم.

المبحث الثالث: أسباب اختلاف الأخلاق عند إخوان الصفا: وتناولت فيه أسباب اختلاف الأخلاق عندهم، والتي تتمثل في أربع أسباب، هي أخلاط البدن ونِسَب هذه الأخلاط، ومناخ وتربة البلاد وهواؤها، والعادة على نوع معين من الأعمال والأفعال، وأحكام الكواكب والنجوم.

المبحث الرابع: الفضائل والرذائل عند إخوان الصفا: وتناولت فيه الحديث عن مفهوم الفضائل والرذائل لديهم، ونماذج من أهم الفضائل والرذائل.

وقد حرصت على أن تعتمد الدراسة على النصوص الأصلية، وحاولت مراعاة أصول البحث العلمى – قدر الإمكان– مستخدمًا أساليب النقد والتحليل والاستدلال والاستقراء ثم الاستنباط والمقارنة للوصول إلى النتائج، مستفيدًا من المنهج التاريخى، والوصفى، والمقارن.

وختاماً : فإنى أقدم هذا الجهد المتواضع راجيًا أن يحظى بالرضا والقبول، وأن يكون لبنة في بناء الدراسات الأخلاقية، وعلى الله قصد السبيل ﴿ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير﴾

المبحث الأول

التعريف بإخوان الصفا ورسائلهم

النشأة ومراحل التكوين:

تقلبت الأحوال بالدولة الإسلامية، وانقسمت الخلافة العباسية إلى أمراء وملوك كانت لهم القوة والحكم الفعلي، ولم يبق للعباسيين من النفوذ والسلطان إلا الاسم والشكل وتوزيع الألقاب على أصحاب السلطة الفعلية.

وفي تلك الأثناء، وتحديدًا في منتصف القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ظهر إخوان الصفا بالبصرة، وسَمُّوا أنفسهم " إخوان الصفا وخلان الوفا وأهل العدل وأبناء الحمد".

ويُعَرِّف إخوان الصفا بأنفسهم، فيقولون في نص قوي، أشبه ما يكون – كما يقول بعض الباحثين – بتلك البيانات التي تصدر عن إذاعات العالم في عصرنا الحاضر معلنة عن قيام ثورة أو مُؤذنة بحدوث تغيير: ((نحن جماعة إخوان الصفا.. أصفياء وأصدقاء كرماء .. كنا نيامًا في كهف أبينا آدم مدة من الزمن، تتقلب بنا تصاريف الزمان ونوائب الحدثان، حتى جاء وقت الميعاد بعد تفرق في البلاد في مملكة صاحب الناموس الأكبر، وشاهدنا مدينتنا الروحية المرتفعة في الهواء))[1].

وزعموا أن جماعتهم تجمعت بالعِشْرة، وتصافت بالصداقة، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة، فوضعوا بينهم مذهبًا، زعموا أنه يقربهم إلى الفوز برضوان الله، وقالوا: لا سبيل إلى إصلاح الشريعة إلا بالفلسفة.

وتُعد جماعة إخوان الصفاء من أشهر الجماعات السرية التي نشطت آنذاك، وسعت إلى كسب الأنصار حولها، ووضعت المؤلفات الفلسفية الدينية، وبثتها بين المنتسبين إليها، وقد لاقت هذه الجماعة انتشارًا، وكثر أتباعها، وفي هذا يقول بارتولد: ((وتألفت في البصرة في القرن الرابع جماعة من المفكرين الأحرار باسم إخوان الصفا، وقد نالت الواحدة والخمسون

(1) انظر: رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، طبعت بعناية الشيخ نور الدين بن جيواخان الكتبي، مطبعة نخبة الأخيار، بومباي- الهند، ١٣٠٥هـ ، جـ٤، ص:١٠٧. وانظر: د. حامد طاهر: الفلسفة الإسلامية في العصر الحديث مدخل وقضايا، مكتبة الزهراء – القاهرة، ١٩٩١م، ص: ١٨٩ .

رسالة التي أبدعها هذا الاتحاد – الشبيه بالجمعية الماسونية – إقبالا عظيمًا بين الناس، وحملها أحد رياضي أسبانيا إلى بلاده في أواخر القرن الرابع الهجري))[٢].

ولإخوان الصفا منهجهم المُحْكم في اختيار الأعضاء، فلا يسمحون لأي أحد أن ينضم إليهم، بل يدققون في الاختيار، وينصحون أتباعهم ((إذا أراد أحدهم أن يتخذ صديقًا مجددًا أو أخًا مستأنفًا– أن يعتبر أحواله، ويتعرف أخباره، ويجرب أخلاقه، ويسأله عن مذهبه واعتقاده، ليعلم هل يصلح للصداقة وصفاء المودة وحقيقة الاخوة أم لا))[٣].

ويرون أن من الناس من لا يصلح للصداقة والأخوة والمقاربة أصلًا، ويوصون بالنظر فيمن يصاحبون ويعاشرون، والابتعاد عمن كان معجبًا صلفًا، أو نكدًا لجوجًا، أو فظًّا غليظًا، أو مماحكًا ماريًا، أو حسودًا حقودًا، أو منافقًا مرائيًا، أو بخيلًا شحيحًا، أو جبانًا مهينًا، أو مكارًا غدرًا، أو متكبرًا جبارًا، أو حريصًا شَرِهًا، أو كان محبًا للمدح والثناء أكثر مما يستحق، أو كان مزريًا لنظرائه، أو كان مستحقرًا لأقرانه والناس، ذامًا لهم، أو متكلًا على حوله وقوته، فهؤلاء لا يصلحون للصداقة وصفو الأخوة[٤].

وهم يبتعدون عن الشيوخ الكبار الذين تأصلت فيهم العادات والآراء القديمة، بحيث يصبح من العسير تغيير معتقداتهم أو تعديلها، ويبدءون باختيار الشباب سالمي الصدور المتهيئين لقبول الدعوة، فهم يرون أن مَثَل أفكار النفوس قبل أن يحصل فيها علم من العلوم واعتقاد من الآراء كمَثَل ورق أبيض نقي لم يُكتب فيه شيء، فإذا كُتِبَ فيه شيء حقًا كان أم باطلًا، فقد شغل المكان ومنع أن يكتب فيه شيء آخر، ويصعب محوه، وفي هذا يقولون: ((فينبغي لك – أيها الأخ – أن لا تُشغل بإصلاح المشايخ الهَرِمَة الذين اعتقدوا من الصبا آراء فاسدة، وعادات رديئة، وأخلاقًا وحشة، فإنهم يتعبونك ثم لا ينصلحون، وإن صلحوا قليلًا قليلًا فلا يفلحون. ولكن عليك بالشباب السالمي الصدور، الراغبين في الآداب، المبتدئين بالنظر في العلوم، المريدين طريق الحق والدار الآخرة، المؤمنين بيوم الحساب، المستعملين شرائع

(٢) ف. بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة: حمزة طاهر، دار المعارف- القاهرة، ط ٥ ، ١٩٨٣م، ص: ٨٠ . والذي حمل الرسائل إلى إسبانيا هو أبو الحكم عمر بن عبد الرحمن بن أحمد بن علي الكرماني. انظر: صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي: الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث – بيروت، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م ، جـ ٢٢ ص: ٣١١.

(٣) إخوان الصفا ، الرسائل ، جـ٤ ، ص: ١٢٥.

(٤) انظر: المصدر السابق، جـ٤ ص: ١٢٧.

الأنبياء عليهم السلام، الباحثين عن أسرار كتبهم، التاركين الهوى والجدل، غير متعصبين على المذاهب))[٥].

ومن ثَمَّ يُوَجِّهون جُلَّ اهتمامهم إلى بث الدعوة بين الفتيان والشباب، فيسعون جاهدين في اكتشاف العناصر الفتية الموافقة لدعوتهم، فإذا عثروا على فتى تتوافر فيه شروطهم استبشروا خيرًا، وعمدوا إلى أساليبهم الخاصة في عجم عوده والوقوف على ميوله ودراسة خلقه وبيئته وعقائد أهله واستعداده، ليكون واحدًا منهم يؤتمن على بعض أسرارهم، وفي ذك يقولون: ((فينبغي لك، إذا أردت أن تتخذ صديقًا أو أخًا، أن تنتقده كما تنتقد الدراهم والدنانير، والأرضين الطيبة التربة للزرع والغرس، وكما ينتقد أبناء الدنيا أمر التزويج وشرى المماليك والأمتعة التي يشترونها. واعلم أن الخطب في اتخاذ الإخوان أجل وأعظم خطرًا من هذه كلها، لأن إخوان الصدق هم الأعوان على أمور الدين والدنيا جميعًا، وهم أعز من الكبريت الأحمر، وإذا وجدت منهم واحدًا فتمسك به، فإنه قرة العين، ونعيم الدنيا، وسعادة الآخرة))[٦].

وتتلو مرحلةَ الاختيار مرحلةُ الإعداد الروحي والعقلي والخُلقي، حتى يصبح – على حد تعبيرهم – إنسانًا خيِّرًا فاضلا أو أخا صفاء حقيقيًّا.

وهذا الطور يطلق عليه الإخوان اسم تصفية النفس، وفيه ترويض محتوم على كل من أراد الانتماء إليهم ومشاركتهم في الجلسات التي يعقدونها، وهم يوصون المتمرسين بالمسئوليات منهم بأن يثقفوا المريدين، ويهذبوهم قبل أن تكشف له أسرار الحكمة، لأن الحكمة كالعروس تريد لها مجلسًا خاليًا، ومثل المفكر الذي يكشف أسرار الحكمة قبل التمهيد لها بهذه المقدمات الضرورية مثل حاجب أذن لقوم بُله في الدخول على مولاه من غير تأديب ولا ترتيب، فهو يستحق العقوبة، ((فمن أجل هذه وجب على الحكماء، إذا أرادوا فتح باب الحكمة للمعلمين، وكشف الأسرار للمريدين، أن يروضوهم أولًا، ويهذبوا نفوسهم بالتأديب، كيما تصفوا نفوسهم، وتطهر أخلاقهم، لأن الحكمة كالعروس تريد لها مجلسًا خاليًا))[٧].

---

(٥) المصدر السابق ، جـ٤ ص: ١٣١.
(٦) المصدر السابق، جـ٤ ص: ١٢٦.
(٧) المصدر السابق، جـ٤ ص: ١٠٣، ١٠٤.

فإذا اجتاز هذه المرحلة من التدقيق في خُلُقه وقَّفه الأخ المعني به على مقاطع من رسائلهم المعروفة، وباحثه في الأمور الواردة فيها دون أن يقطع في واحدة منها، ويكون الاتصال التمهيدي وسيلة بارعة للإكثار من التساؤل وإثارة الفضول وترقب الحلول والتشوق إلى المستقبل، حتى تبلغ الرغبة في نفس الفتى أشدها، ويعتقد أن كل مغلق من أسرار الكون والإلهيات سيفتح له إذا ولج باب الجمعية(٨).

وبعد هذا اللقاء الفكري تأتي دعوة الشخص الالتحاق بهم، والسير على طريقهم والانخراط الكامل في جماعة لها سلوكها الخاص ومبادئها المعينة، وقد سعى الإخوان إلى نوع من التنظيم لجماعتهم، فانقسموا حلقات، يختلف عدد المنضمين إلى كل وحدة منها باختلاف المدن أو القرى، وندبت الإدارة المركزية لكل طائفة أخًا وثقت من بصيرته ومعارفه وخلوص عقيدته، لينوب عنها في توجيه الأفراد وإعداد أذهانهم ووقفهم على ما يحب أن يعرفوه من أمورها، وفي الرسائل مقاطع كثيرة تشير إلى تكليف بعض الأفراد القيام بهذه المهمة، ومنها يتبين اهتمام الإخوان وتوجههم إلى الفتيان المنتمين إلى الطبقة المتنفذة من أبناء الحكام والتجار والفقهاء والعلماء وأرباب الأموال، وكان المديرون يطلعون المركز الرئيسي على كل ما يستجد لديهم من أمور، وينقلون أسماء الأشخاص الذين يتصلون بهم، وينوون ضمهم إليهم، وما يلاقونه من نجاح أو عقبات في دعوتهم، وكثيرًا ما يرد الجواب، وفيه توجيهات مفصلة للأسلوب الذي يجب اتباعه في مداراة هذا أو ذاك من الفتيان(٩).

وأول ما يتخلص منه إخوان الصفا هو شهوات الدنيا وغرائز البدن التي تعتبر في نظرهم حائلا بين الإنسان والمعرفة، فهم يقررون أن أسرار الدين وبواطن الأمور الخفية وأسرارها المكنونة لا يمسها إلا المطهرون من أدناس الشهوات وأرجاس الكبر والرياء.

وإذا كان الامتناع عن الكبر والشهوات هو أول خطوة في مرحلة التطهير، فإن ترك الفضول أو الاكتفاء بما هو ضروري للبدن خطوة تالية تتقدم بالإنسان في طريق المعرفة.

(٨) انظر: د. جبور عبد النور: إخوان الصفا، دار المعارف- القاهرة، ط٤، ١٩٨٣م، ص: ٩، ١٠.
(٩) انظر: المرجع السابق، ص ١٠- ١٢.

وفي نهاية هذه المرحلة يطالب إخوان الصفا بأن يطرح المريد على الأرض كل نزعات الجسد، وأن يتطلع إلى عالم روحي، يسمو عن الرغبة في الدنيا، ويعتمد على التصوف والزهد.

وفي محاولة الوصول بالنفس إلى أعلى مراتب الإنسانية فعليه أن يقوم بعملية إخلاء وتطهير للنفس من كل ما علق بها من الأخلاق والعادات الرديئة منذ الصغر، وصار لها طبعًا مع العادة. وبهذا تتم عملية التطهير. ومن ثم ((نستطيع أن نقسم مرحلة الإعداد قسمين كبيرين: يتضمن أحدهما منهجًا للتطهير الجسدي والنفسي من عادات وطبائع معينة. ويشتمل الآخر على منهج لتكوين علمي وعقائدي وأخلاقي، الغرض منه في النهاية تخريج إخوان الصفا إلى الحياة ممارسين حقهم الموضح في قيادة الناس جميعًا نحو السعادة الكاملة))[١٠].

بعد ذلك تأتي مرحلة التكوين الأخلاقي أو الامتلاء، والغرض منها أن يحقق أخو الصفا عددًا من الصفات والأخلاق الحميدة؛ ليتمكن بعد اكتسابها من أن يكون قدوة لغيره من الناس، ولذا يوصي إخوان الصفا صاحبهم بأن تكون أخلاقه رضية، وعاداته جميلة، وأفعاله مستقيمة، يؤدي الأمانة إلى أهلها كائنًا من ولي وعدو، ويأخذ نفسه بحفظها ويرعى حق من استرعاه حقها، ويحسن مجاورة جاره، ويضفي مودة صديقه، ويخلص المحبة لمحبه، مع قلة الفزع في مستعجل زائل وحادث نازل، ويريد للغير ما يريد لنفسه[١١].

لكن أهم ما يميز أخلاق عضو الجماعة، وهو في الوقت نفسه أصل لكل الأخلاق التي يدعى إليها هو إيثار الغير أو إيثار الذات، أو ما يمكن أن نطلق عليه فدائية الفرد الذي يضحي بنفسه من أجل المجموع، ((واعلم يا أخي أن دولة أهل الخير[١٢] يبدأ أولها من قوم علماء حكماء وخيار فضلاء، يجتمعون على رأي واحد، ويتفقون على مذهب واحد، ودين واحد، ويعقدون بينهم عهدًا وميثاقًا ألا يتجادلوا ولا يتقاعدوا عن نصرة بعضهم بعضًا،

---

(١٠) د. حامد طاهر: الفلسفة الإسلامية مدخل وقضايا، ص:١٩٣. وانظر: ص: ١٩٣- ١٩٥.

(١١)إخوان الصفا ، الرسائل ، جـ٤ ، ص: ٢٧١ .

(١٢) يلاحظ تحول التعبير من جماعة إخوان الصفا إلى دولة أهل الخير وما يتضمنه هذا التحول من كشف للهدف الذي بدأ عمليا مصطبغا بصبغة صوفية فلسفية ، ثم أصبح فيما بعد بعدا سياسيا واضحا. انظر: د. حامد طاهر: الفلسفة الإسلامية مدخل وقضايا ، هامش ص: ٢٠٢ .

ويكونون كرجل واحد في جميع أمورهم، وكنفس واحدة في جميع تدبيرهم، فيما يقصدون من نصرة الدين وطلب الآخرة))[١٣].

وإذا أخلص العضو نيته، ووفَّى بقوله وعمله، وآنست الجماعة منه صدقًا في اعتقاد دعوتهم، فإنها تحيطه برعايتها، وتمهد أمامه الصعوبات، وتأخذ بيده، ويفيدون من صلاتهم الكثيرة مع أصحاب السلطان ومن انتشار الأعضاء في كل مكان ليأخذوا بيد إخوانهم، ويفيدوهم، يقولون في الرسائل: ((اعلم أيها الأخ، أيدك الله وإيانا بروح منه، بأن لنا إخوانًا وأصدقاء من كرام الناس وفضلائهم متفرقين في البلاد؛ فمنهم طائفة من أولاد الملوك والأمراء والوزراء والكتاب والعمال، ومنهم طائفة من أولاد الأشراف والدهاقين والتناء والتجار، ومنهم طائفة من أولاد العلماء والأدباء والفقهاء وحملة الدين، ومنهم طائفة من أولاد الصناع والمتصرفين وأمناء الناس. وقد ندبنا لكل طائفة منهم أخًا من إخواننا ممن ارتضينا في بصيرته ومعارفه لينوب عنا في خدمتهم بإلقاء النصيحة إليهم بالرفق والرحمة والشفقة عليهم))[١٤]

أما إذا استشرى الخلاف، وأدَّى إلى خروج العضو من الجماعة، بعد أن يكون قد أقسم بالوفاء لها، فإن الإخوان يتبرءون منه، ويَدَعُون الاستعانة به في أمورهم، ويمتنعون عن معاشرته في معاملتهم، ولا يكلمونه في علومهم، ويطوون دونه أسرارهم، ويوصون جميع الأعضاء بمجانبته، ولعلهم يعمدون أيضًا إلى وسائل فعالة غير هذه يضمنون بها كتمانه بعض الأسرار التي وقف عليها، غير أننا لا نجد في الرسائل إشارة إلى استخدام العنف، وإن كانت هذه الوسيلة من الأمور الممكنة التي لا يستبعد استخدامها في مثل هذه الظروف[١٥].

مراتب إخوان الصفا:

حاولت جماعة إخوان الصفا الاعتماد على كثير من الأتباع المخلصين الذين يقومون لها بالدعوة دائمًا، كما سعوا إلى تثبيت مذهبهم بتأليف الكتب والرسائل المتنوعة التي تساعد على توضيح تعاليم الأستاذ في نفوس أتباعه وفي أذهان بقية الناس، ((وقد فعل هذا إخوان الصفا حيث ألَّفوا رسائل متعددة كل منها تمثل جانبا من مذهبهم الباطني، وكل منها تغوص

(١٣)إخوان الصفا ، الرسائل ، جـ١ ص: ١٤٤.
(١٤) المصدر السابق، جـ٤ ص: ٢٢٣.
(١٥) انظر: د. جبور عبد النور: إخوان الصفا، ص: ١٠ -١٢ .

في التأويل الباطني أعمق من التي سبقتها. وهذا شيء طبيعي بالنسبة لهذه لمذاهب الضالة))[١٦].

ومن الطبيعي أن ينقسم إخوان الصفا ككل جماعة أخرى إلى درجات ينتشر عليها الأعضاء بحسب مكانهم من الدعوة وتتدرج تلك المراتب صعدا عند إخوان الصفاء وفقًا لعمر العضو ومبلغ تمكنه من العلوم والمعارف وسمو الروح.

وهناك أربع مراتب أو طبقات لأعضاء تلك الجماعة:

– الطبقة الأولى:" الإخوان الأبرار الرحماء " : وتشمل الشبان الذين تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والثلاثين. وهم أصحاب النفوس الصافية سريعة الانطباع.

– الطبقة الثانية: " الإخوان الأخيار الفضلاء " : وتشمل من كانت أعمارهم بين الثلاثين والأربعين سنة، وهي مرتبة الرؤساء ذوي السياسات، ويكلفون بمراعاة الإخوان أصحاب المرحلة السابقة وتعهدهم وإظهار العطف عليهم ومساعدتهم .

– الطبقة الثالثة : " الإخوان الفضلاء الكرام ": وتشمل الذين هم بين الأربعين والخمسين من العمر، وهم الذين يدافعون عن الجمعية ويردون كيد خصومها، ويتمتعون بحق الأمر والنهي.

– الطبقة الرابعة : وتشمل من تجاوزت أعمارهم الخمسين سنة. وهي أعلى مراتب الإخوان، ويمثلون الفئة المختارة التي انكشف أمامها الستر وبانت لها الحقائق، ومن يبلغها يكون في نظر هذه الفرقة يصبح من أهل الكشف اللدني [١٧].

وإذ قد وصلنا إلى هذه النقطة فإنه من المستحسن لتتضح الصورة كاملة عن إخوان الصفا أن نتناول علاقتهم بالشيعة الإسماعيلية والقرامطة، وذلك فيما يلي:

حقيقة إخوان الصفا وعلاقاتهم بالإسماعيلية:

إخوان الصفا جماعة منظمة تعمل لغرض محدد، تلمح إليه، ولا تُصَرِّح به أمام من لا ينتمي إليها ، بل لا يصرحون به في رسائلهم إلا مموهاً، وبأسلوب رمزي يحتمل التأويلات المختلفة، ولا يدرك القارئ العادي مقصده، ويخلص إلى معناه المقصود الأخ المدرب. ويؤكد

(١٦) د. عبد اللطيف محمد العبد: المانوية، دار النهضة العربية- القاهرة، ١٣٩٦هـ١٩٧٦.، ص: ١٧، ١٨.
(١٧) انظر: إخوان الصفا ، الرسائل ، جـ ٤ ص: ١٣٤، ١٣٥. ود. جبور عبد النور: إخوان الصفا،ص: ١٣، ٦٨.

ذلك قول أبي حيان، وكان تلميذًا لزيد بن رفاعة: ((إن زيد بن رفاعة وجماعة من كبار فلاسفة الإسلام كانوا يجتمعون في منزل أبي سليمان النهرجوري، وكان شيخهم – وإن لم يحز شهرتهم – وكانوا إذا اجتمع معهم أجنبي التزموا الكنايات والرموز والإشارات))[١٨].

وفي الرسائل يسعى إخوان الصفا سعيًا جديًّا لنشر الدعوة العلوية وإقامة نظام سياسي جديد، ((كما أن فيها إشارات عابرة نستشف منها ميلا خفيًّا إلى المجوسية الفارسية المعدلة بالوثنية الإغريقية، وفي منهج إخوان الصفا لا ينبغي أن ينخدع القارئ بتطعيم نصوصهم ببعض آيات القرآن الكريم، كما لا ينبغي أن يوحي إليه هذا الموقف المتسامح من الجماعة مع العدو والصديق أنه أمام جماعة صوفية قد قطعت أسبابها بالدنيا، وأخلت صدرها من التعلق بها))[١٩].

ومن الدلائل على انتسابهم للإسماعيلية بعض آراء الإسماعيلية التي توجد في رسائل إخوان الصفا، حيث يوجد في متن الرسائل ما لا يحصى من الأدلة على انتماء مؤلفيها لمذهب الإسماعيلية، كقولهم: ((فكن أيها الأخ مساعدًا لإخوانك وموافقًا ومناصحًا، ينفع الله بك العباد، ويصلح بك شأنهم، كما وعد الله، فقال: ((فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا))[٢٠]. وقد سمعت في الخبر أن الحكمين يوم صفين لم يريدا إصلاحًا، بل خدع كل واحد صاحبه، ومكر، وأضمر الحيلة والغل؛ فلم يوفقوا في الصلح على طريق الرشاد، فرجع أمير المؤمنين غير راض بذلك الحكم))[٢١].

ويتضح الميل الشيعي عندما يعرضون للحسد، حيث يتكلمون عن ما قام به النبي صلى الله عليه وسلم في تأليف القلوب وتعليم الناس وإرشادهم وأخذهم بالملاطفة حتى فهموا الدين، ثم ينتقلون فجأة إلى الكلام على الأمة التي بعث فيها النبي صلى الله عليه وسلم، وإلى الحالة التي تنتهي إليها من الفوضى والاضطراب إذا تركت وصية نبيها، واختلفت من بعده واعتمدت رأيها، وذلك إذا أرادت أن تُمَلِّك عليها ملكًا، وتنصب خليفة بغير معرفة من الرسول

(١٨) يوسف بن إليان بن موسى سركيس: معجم المطبوعات العربية والمعربة، مطبعة سركيس بمصر ١٣٤٦هـ ١٩٢٨، جـ ٢ ص: ٤١٠ .
(١٩) د. حامد طاهر: الفلسفة الإسلامية مدخل وقضايا، ص: ١٩٠ ، ١٩١ .
(٢٠) سورة النساء، الآية رقم: ٣٥.
(٢١)إخوان الصفا ، الرسائل ، جـ٤ ، ص: ١٠٧.

ولا وصية منه ولا إرشاد، فإنما مثلها – كما يقول الإخوان – كمثل الغربان والبزاة، وهو مثل صريح لما يرمزون إليه من أن قيام الخلافة على الشورى يخالف إرادة صاحب الرسالة، وأن النبي أوصى بمن يخلفه، وكرروا الألفاظ التي نجدها في كتب الشيعة وعلى ألسنتهم(٢٢).

وإذا كانت أقوالهم في تأييد العلوية ترد في خفر وتورية، فإنهم لا يغالون في إخفائها، لأنها ليست من الأمور التي تبغضهم إلى الناس وتؤلبهم عليهم، بل ربما كانت من الأسباب الرئيسية التي دعت إلى ذيوع مذهبهم في البيئة العلوية، بل وحاولوا بها إخفاء الغاية الفضلى والقصوى، ومع ذلك فهم حذرون لا يذكرونها صراحة.

غير أن الإخوان يُلقون القناع عن وجوههم في القسم الرابع من مجموعة الرسائل العامة، فيتحول الظن إلى يقين، والحدس إلى حقيقة، ويتجلى ميلهم العلوي في كثير من المقاطع، إذ يصرحون بأسماء بعض الأئمة، ويحتجون بكلام الحسين، ويعرضون لصفين في كلامهم على الأنبياء(٢٣).

ومن ذلك قولهم: ((ومن الناس طائفة ينتسبون إلينا بأجسادهم، وهم برآء بنفوسهم منا، ويسمون أنفسهم العلوية، وما هم بالعلوية، ولكنهم من أسفل السافلين؟))(٢٤).

يقول ابن تيمية في درء تعارض العقل والنقل أثناء حديثه عن الإسماعيلية: ((كان أصحاب رسائل إخوان الصفاء من الموافقين لهم، وصُنِّفَتْ الرسائل على طريقتهم في الزمان الذي بُنيت فيه القاهرة في أثناء المائة الرابعة، وكان أمر المسلمين قد اضطرب في تلك المدة اضطرابًا عظيمًا))(٢٥).

وفي أخبار ابن سينا (ولد سنة ٣٧٠هـ) أنه كان ينظر مع أبيه في رسائل إخوان الصفا وهو ابن عشر سنين، وكان يقول: ((وكان أبي ممن أجاب داعي المصريين، ويُعَدُّ من الإسماعيلية، وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل على الوجه الذي يقولونه، ويعرفونه هم، وكذلك أخي، وكانا ربما تذاكروا بينهم، وأنا أسمعهم، وأُدْرك ما يقولونه، ولا تقبله نفسي،

(٢٢) انظر: د. جبور عبد النور: إخوان الصفا، ص: ١٩، ٢٠ ، وانظر: الرسائل، جـ٣ ص: ١٧٣، ١٧٤.
(٢٣) انظر: المرجع السابق، ص: ١٨، ٢٠ .
(٢٤) الرسائل، جـ ٤ ص: ١٥٩ .
(٢٥) تقي الدين ابن تيمية: درء تعارض العقل والنقل، تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم، نشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ط٢، ١٤١١هـ ١٩٩١م، جـ ٥ ص:١٠ .

وابتدءوا يدعونني أيضًا إليه، ويجرون على ألسنتهم ذكر الفلسفة والهندسة وحساب الهند))[٢٦].

ويقول المحبي: ((وحاصل تلك الرسائل ليس إلا مذهب الباطنية الإسماعيلية، وهم على أنحاء شتى،... والإسماعيلية يوافقون الإمامية في ذلك في الصادق ومَنْ قبله، ويخالفونهم في الكاظم، ويقولون بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق، وإليه ينسبون بالسبعية لقولهم بسبعة أئمة))[٢٧].

وفي ذلك يقول العقاد: ((كان الإسماعيليون يشتغلون بالفلسفة، ويرجحون مذهب الأفلاطونية الحديثة، وهو مذهب الفيلسوف أفلوطين (٢٠٥- ٢٧٠م) الذي ولد بإقليم أسيوط، وألقى دروسه في الإسكندرية، ثم في روما، ومن أتباع الإسماعيليين الذين نشروا هذا المذهب إخوان الصفا أصحاب الرسائل المنسوبة إليهم، ... وقد شاع مذهب الإسماعيلية شرقًا وغربًا في العالم الإسلامي من جبال الأطلس إلى تخوم الهند وآسيا الوسطى))[٢٨].

ويقول د. عارف تامر: ((ومهما يكن من أمر فإن رسائل إخوان الصفا لم تخرج عن كونها الدعائم والأسس التي أقام عليها الإسماعيليون بناء فلسفتهم وعقيدتهم))[٢٩].

---

(٢٦) موفق الدين ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: الدكتور نزار رضا، دار مكتبة الحياة، ص: ٢٩٠.

(٢٧) محمد أمين بن محمد المحبي: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، دار صادر – بيروت، جـ ٢ ص: ٤٣١.

(٢٨) عباس محمود العقاد: ابن رشد، دار المعارف- القاهرة، ط٦، ١٩٩٢م، ص: ٩، ١٠.

(٢٩) د. عارف تامر: ابن سينا في مرابع إخوان الصفا، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر- بيروت، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م، ص: ٩٤.

كما أن هناك علاقة وثيقة بين الإخوان والقرامطة[٣٠] تلك الحركة التي لها ارتباط بالإسماعيلية، والتي كان هدفها محاربة الإسلام بكل الوسائل، وذلك بارتكاب الكبائر وهتك الأعراض وسفك الدماء والسطو على الأموال وتحليل المحرمات بين أتباعهم حتى يجمعوا عليهم أصحاب الشهوات والمراهقين وأسافل الناس.

ويشير ابن تيمية في فتاواه إلى أنهم على طريقة العبيديين ذرية عبيد الله بن ميمون القداح، وأن ما يقولونه مخالف للملل الثلاث، ومخالف للرسل فيما أخبرت به وأمرت به، وبه التكذيب بكثير مما جاءت به، وتبديل شرائع الرسل كلهم بما لا يخفى على عارف بملة من الملل[٣١].

(٣٠) (القرامطة حركة باطنية هدَّامة تنتسب إلى حمدان بن الأشعث، ويلقب بقرمط، وهو من خوزستان في الأهواز ثم رحل إلى الكوفة، وقد اعتمدت هذه الحركة التنظيم السري العسكري ، وكان ظاهرها التشيع لآل البيت والانتساب إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وحقيقتها الإلحاد والإباحية وهدم الأخلاق والقضاء على الدولة الإسلامية . وكانت البداية على يد عبد الله بن ميمون القداح الذي سعى إلى نشر المبادئ الإسماعيلية في جنوب فارس سنة ٢٦٠هـ ، وفي سنة ٢٧٨ هـ نهض حمدان بن الأشعث بيث الدعوة جهرًا قرب الكوفة، ثم بنى دارًا سمَّاها دار الهجرة، وقد جعل الصلاة خمسين صلاة في اليوم. وقد دامت هذه الحركة قرابة قرن من الزمان، وقد بدأت من جنوبي فارس، وانتقلت إلى سواد الكوفة والبصرة، وامتدت إلى الأحساء والبحرين واليمن، وسيطرت على رقعة واسعة من جنوبي الجزيرة العربية والصحراء الوسطى وعمان وخراسان، وقد دخلوا مكة، وانتهبوها.

ومن قوادهم سليمان بن الحسن بن بهرام، ويعرف بأبي طاهر، استولى على كثير من بلاد الجزيرة العربية، ودام ملكه فيها ثلاثين سنة، ويعتبر مؤسس دولة القرامطة الحقيقي، وقد فتك هو ورجاله بالحُجَّاج حين رجوعهم من مكة، ونهبوهم وتركوهم في الصحراء حتى هلكوا، وبلغ من سطوته أن دفعت له حكومة بغداد الإتاوة!، ومن أعماله الرهيبة أنه هاجم مكة عام ٣١٩هـ، واستباحوها، وفتك بالحُجَّاج، وهدم زمزم، وملأ المسجد بالقتلى، ونزع كسوة الكعبة، واقتلع الحجر الأسود من البيت العتيق، وسرقه إلى الأحساء ، وبقي الحجر هناك عشرين سنة إلى عام ٣٣٩هـ . واحتلوا دمشق ووصلوا إلى حمص والسلمية. ومضت جيوشهم إلى مصر، وعسكرت في عين شمس قرب القاهرة، ثم انحسر سلطانهم، وزالت دولتهم، وسقط آخر معاقلهم في الأحساء والبحرين.

أما عن أفكارهم ومعتقداتهم فيمكن أن نقول إنه يجمعها العنف والإباحية والتنصل من الإسلام، فقد أسسوا دولة شيوعية تقوم على شيوع الثروات وعدم احترام الملكية الشخصية، وجعلوا الناس شركاء في النساء فلا يجوز عندهم لأحد أن يحجب امرأته عن إخوانه، وابتعدوا عن أحكام الإسلام الأساسية كالصوم والصلاة وسائر الفرائض الأخرى. واستخدم القرامطة العنف ذريعة لتحقيق أهدافهم، وأصبحوا بذلك مجتمع ملاحدة وسفاكين يستحلون النفوس والأموال والأعراض). انظر: ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة الخانجي- القاهرة، جـ٤ ص: ١٤١- ١٤٣. وعبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي: الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، دار الآفاق الجديدة- بيروت، ط٢ ١٩٧٧م، ص ٢٦٦- ٢٧٥. وابن الجوزي: تلبيس إبليس، تحقيق د. السيد الجميلي، دار الكتاب العربي- بيروت، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م، ص ١٢٦، ١٢٧. إسماعيل بن عمر بن كثير: البداية والنهاية، مكتبة المعارف – بيروت، جـ١١ ص: ٨١ -٨٥.

(٣١) انظر: تقي الدين بن تيمية: مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، ط: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية – السعودية، ١٤١٦هـ ١٩٩٥م، جـ٣٥ ص: ١٣٤.

وقد وُجِدَت رسائل إخوان الصفا في الحصون الجبلية للقرامطة الإسماعيلية في فارس والشام، وهذا دليل على استخدامها كبرنامج لحركاتهم الثورية، وحينما استولى المغول على قلعة الموت وجدوها غنية برسائل إخوان الصفا(٣٢).

عقيدة إخوان الصفا:

زعم إخوان الصفا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال، وقد ذكروا هذا الهدف من وجودهم ومن كتابة رسائلهم في قولهم: ((الشريعة قد دنست بالجهالات، واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة؛ وذلك لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية))(٣٣).

وقد تأولوا الشعائر الإسلامية تأولا رمزيًّا؛ ففهموا من الحج إلى مكة والقيام بالمناسك طواف الإنسان حول هذه الأرض . وفي شهادة معاصريهم وهي قليلة نادرة حجة دامغة على النهج الذي اتبعوه في حياتهم من حيث امتناعهم عن التقيد بشعائر بيئتهم الإسلامية.

وفي هذا يقول ابن تيمية: ((الزندقة والنفاق فيهم إلى اليوم، وعندهم كتب الحاكم، وقد أخذتها منهم، وقرأت ما فيها من عبادتهم الحاكم، وإسقاطه عنهم الصلاة والزكاة والصيام والحج، وتسمية المسلمين الموجبين لهذه الواجبات المحرِّمين لما حرَّم الله ورسوله بالحشوية، إلى أمثال ذلك من أنواع النفاق التي لا تكاد تحصى، وبالجملة فعلم الباطن الذي يدعون مضمونه الكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، بل هو جامع لكل كفر))(٣٤).

وقد استخدم الإخوان قولهم بالظاهر والباطن ليكون ذريعة إلى الكذب على شرع الله، ومِعْولا لهدم الدين في نفوس المسلمين، وعن العلم الباطن يقولون: ((فاعلم يا أخي بأن لكل شيء من الموجودات في هذا العالم ظاهرًا وباطنًا، وظواهر الأمور قشور وعظام، وبواطنها لب ومخ، وإن الناموس هو أحد الأشياء الموجودة في هذا العالم منذ كان الناس، وله أحكام وحدود ظاهرة بينة يعلمها أهل الشريعة وعلماء أحكامها من الخاص والعام، ولأحكامه وحدوده أسرار وبواطن لا يعرفها إلا الخواص منهم والراسخون في العلم))(٣٥).

---

(٣٢) انظر: د. حامد طاهر: الفلسفة الإسلامية مدخل وقضايا ، ص: ٢٠٨ .
(٣٣) أبو حيان التوحيدي علي بن محمد : الإمتاع والمؤانسة، المكتبة العصرية – بيروت، ١٤٢٤هـ، ص: ١٦٣.
(٣٤) مجموع الفتاوى، مرجع سابق، جـ ٣٥ ص: ١٣٥. وانظر: د. جبور: إخوان الصفا، ص: ٢٨ .
(٣٥) رسائل إخوان الصفاء ، جـ١، ص: ٦٠ .

ويتابع إخوانُ الصفا المتفلسفةَ الملاحدة في أنهم يجعلون الملائكةَ قوى النفس الصالحة، والشياطينَ قوى النفس الخبيثة، ويجعلون سجود الملائكة طاعة القوى للعقل، وامتناع الشياطين عصيان القوى الخبيثة للعقل، ونحو ذلك من المقالات التي يقولها أصحاب رسائل إخوان الصفا وأمثالهم من القرامطة الباطنية، ومن سلك سبيلهم من ضلال المتكلمة والمتعبدة. لقد اطلع إخوان الصفا على آراء الفلاسفة وآراء الوثنيين من المجوس وغيرهم، وزينوا مقالاتهم بما جمعوه من الآيات والأحاديث ليلبسوا على الناس، فكان فكرهم لا يتقيد بكتاب أو مذهب، ((وانتهت بهم نزعتهم التوفيقية والانتقائية إلى أن يروا في جميع المذاهب الفلسفية مذهبًا واحدًا يوافق جوهر الأديان، ونظروا إلى الأنبياء نظرهم إلى الحكماء، وساقوا أقوال الفئتين على أنها مؤيدة لأحكام متشابهة، ونلمس هذه المحاولة في الكثير من صفحاتهم حتى نكاد نعتقد أن هيكلهم يحتوى على كل ما تعلق به عقل الإنسان وقلبه من فكر وعاطفة، ينظمون إبراهيم ويوسف والمسيح ومحمدًا وسقراط وفيثاغورس في مدرسة موحدة الأهداف مختلفة الأساليب))[٣٦].

ويضيف جبور عبدالنور: ((في وسعنا القول إن إخوان الصفا علويون وباطنيون وإسماعيليون ومعتزلة وفيثاغوريون وأفلوطينيون ومجوس، لأن لكل هذه النزعات أثرًا بارزًا في الرسائل، ولأن هذا الخليط يتجاوز فيها على غير وفاق، ويتلاحق على غير اتساق، وهم في الواقع ليسوا شيئًا معينًا بذاته، بل هم كل شيء، تعاليمهم كقوس قزح من حيث تعدد الألوان، فيها ما تشاء من أقوال الفيثاغوريين والأكاديميين والمشائيين والإسكندريين والرسل والأنبياء وأصحاب الفرق من أتباعهم. ونحن واجدون في نصوصهم فقرات كثيرة ولكنها مموهة تشير إلى أن في قرارة نفوسهم ميلا إلى الوثنية، غير أن هذه الوثنية غامضة الملامح، ليست بالإغريقية الخالصة ولا بالبابلية ولا بالأشورية، وليست مزدكية ولا مانوية، وإنما هي خليط من جميع هذه العناصر معدلة هنا مخففة هناك مكثفة هنالك، بحيث يضيع الدارس في تعداد الأصداء واختلاف الأهواء))[٣٧].

(٣٦) د. جبور عبد النور: إخوان الصفا، مرجع سابق، ص: ١٧ . وانظر: ابن تيمية: مجموع الفتاوى،جـ ٤ ص: ٣٤٦
(٣٧) المرجع السابق، ص: ٢٦، ٢٧.

هذا والباحث يتفق مع هذه الآراء مؤكدا أن معالم الوثنية واضحة في مذهب إخوان الصفا

مصادر إخوان الصفا:

للإخوان بعض الكتب السرية الخاصة بهم يستمدون منها علومهم، وهي المدارس الأربعة والكتب السبعة والجفران والرسائل الخمس والعشرون والرسائل الاثنتان والخمسون والرسالة الجامعة، وقد أخذ الإخوان علومهم من أربعة مصادر هي:

أولا: الكتب المصنَّفة على ألسنة الحكماء والفلاسفة في الرياضيات والطبيعيات.

ثانيًا: الكتب المُنَزَّلة التي جاء بها الأنبياء المأخوذة معانيها بالوحي من الملائكة وما فيها من الأسرار الخفية.

ثالثًا: الكتب الطبيعية، وهي أشكال الموجودات بما هي عليه الآن في تركيب الأفلاك وأقسام البروج وحركات الكواكب ومقادير أجرامها وتصاريف الزمان واستحالة الأركان وفنون الكائنات من المعادن والحيوان والنبات وأصناف المصنوعات على أيدي البشر.

رابعًا: الكتب الإلهية التي لا يمسها إلا المطهرون الملائكة التي هي بأيدي سفرة كرام بررة وهي جواهر النفوس وأجناسها وأنواعها وجزئياتها وتصاريفها للأجسام وتحريكها لها وتدبيرها إياها وتحكمها عليها وإظهارها أفعالها بها[٣٨].

ويؤكدون على هذا التنوع المعرفي في مصادرهم، فيقولون: ((وبالجملة ينبغي لإخواننا – أيدهم الله تعالى – أن لا يعادوا علمًا من العلوم، أو يهجروا كتابًا من الكتب، ولا يتعصبوا على مذهب من المذاهب، لأنَّ رأْيَنا ومذهبَنا يستغرق المذاهب كلها، ويجمع العلوم جميعها، وذلك أنه هو النظر في جميع الموجودات بأسرها الحسية والعقلية، ومن أولها إلى آخرها، ظاهرها وباطنها، جليها وخفيها، بعين الحقيقة من حيث هي كلها من مبدأ واحد، وعلة واحدة، وعالم واحد، ونفس واحدة، محيطة جواهرها المختلفة، وأجناسها المتباينة، وأنواعها المفننة، وجزئياتها المتغايرة))[٣٩].

([٣٨]) انظر: الرسائل، جـ٤ ص: ١٢٤، ١٢٥. ود. وجيه أحمد عبد الله: الوجود عند إخوان الصفا، دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية، ١٩٨٩م، ص: ١٠٢، ١٠٣.

([٣٩]) الرسائل، مرجع سابق، جـ٤ ص: ١٢٤، ١٢٥.

ومن ثم يمكن القول بأن ((مصدر الأخلاق عند إخوان الصفا مستمد من الأديان والمعارف في آن واحد، فسائر الديانات – حتى غير السماوية – تنطوي في نظرهم على فضائل ومُثُل عليا. وعندهم أن الأديان والمعارف تعمل على غرسها، لأن الدين والمعرفة معًا من فيض الله وإشراق نوره على العقل الكلي، ومنه على النفس الكلية على الهيولي، وهي الصورة التي يرى الأنفس الجزئية في عالم الأجسام على ظواهر الأشخاص))[٤٠].

وتجد في رسائلهم نزعة صوفية واضحة، وقد أشار الغزالي في المنقذ من الضلال خلال حديثة عن الفلاسفة إلى أن إخوان الصفا مزجوا كلامهم من الحكم النبوية والكلمات الصوفية [٤١].

وإذ قد وصلنا إلى هذه النقطة فإنه يحسن بنا أن نتوقف وقفة – فيما يلي – عند أهم مصادرهم، وهي الرسائل:

رسائل إخوان الصفا:

رسائل إخوان الصفا اثنتان وخمسون رسالة في فنون العلوم والآداب المختلفة، ضمَّنُوها خلاصة العلوم المعروفة عندهم، كعلوم الفلك والرياضيات والعَدَد والهندسة والطب والجغرافيا والأدب وعلم الحيوان... إلخ. وأشاروا في أول هذه الرسائل إلى أن الحكماء والفلاسفة الذين كانوا قبل الإسلام تكلموا في علم النفس، وصنَّفوا كتبهم الفلسفية، ولكنهم لما طَوَّلوا الخَطْب فيها، ونَقَلَها من لغة إلى لغة مَنْ لم يكن قد فهم معانيها – حرَّفَها وغيَّرها، حتى انغلق على الناظر فيها فهم معانيها، وهم قد أخذوا لب معانيها، وأقصى أغراضهم فيها، وأوردوها بأوجز ما يمكن من الألفاظ في اثنتين وخمسين رسالة[٤٢].

وتقع مطبوعة الرسائل في أربعة مجلدات، منها ما يبلغ مائة وأربعين صفحة، كالرسالة رقم: (٥٢) في السحر، ومنها ما يبلغ ثلاث صفحات كالرسالة رقم: (١٢) في معنى (باريميانياس).

(٤٠) د. محمود إسماعيل عبد الرازق: إخوان الصفا رواد التنوير في الفكر الغربي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع- القاهرة، ١٩٩٨، ص: ١١٦.

(٤١) انظر: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي: المنقذ من الضلال، تحقيق: د. عبد الحليم محمود، دار الكتب الحديثة، مصر، ص: ١٥٤.

(٤٢) انظر: إخوان الصفا ،الرسائل ، جـ١، ص:٤٢.

وقد قدَّم إخوان الصفا رسائلهم لمريديهم في تسلسل ومنهجية معينة لشتى العلوم والفنون، ورأوا أنها تساعد النفس على تحقيق ماهيتها في تَرَقِّيها لتبلغ أقصى غاياتها.

والرسائل مُقَسَّمة على أربعة أقسام:

القسم الأول: رسائل رياضية تعليمية.

والقسم الثاني: رسائل جسمانية طبيعية.

والقسم الثالث: رسائل نفسانية عقلية.

والقسم الرابع: رسائل ناموسية شرعية إلهية.

وتلي هذه الرسائل الرسالة الجامعة لما في الرسائل المتقدمة كلها، والمشتملة على حقائقها بأسرها؛ إذ هذه الرسائل كالمقدمات لها والمداخل إليها والأدلة عليها والأنموذج منها، ((والرسالة الجامعة من رسائلنا هي منتهى الغرض لما قدَّمناه، وأقصى المدى ونهاية القصد، وغاية المراد))[٤٣].

وفي وصف تلك الرسائل يقول القفطي: ((إخوان الصفا وخلان الوفا هؤلاء جماعة اجتمعوا على تصنيف كتاب في أنواع الحكمة الأولى، ورتبوه مقالات عدتها إحدى وخمسون مقالة[٤٤]، خمسون منها في خمسين نوعًا من الحكمة، ومقالة حادية وخمسون جامعة لأنواع المقالات، على طريق الاختصار والإيجاز، وهي مقالات مشوقات غير مستقصاة ولا ظاهرة الأدلة والاحتجاج، وكأنها للتنبيه والإيماء إلى المقصود الذي يحصل عليه الطالب لنوع من أنواع الحكمة))[٤٥].

مؤلف الرسائل:

لما كتم مصنفو الرسائل أسماءهم اختلف الناس فيمن وضعها، فقال قوم: هي من كلام بعض الأئمة من نسل علي بن أبي طالب – رضي الله عنه –، وحدَّده بعضهم بالإمام الصادق، وحدَّده آخرون بأنه أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق.

([٤٣]) المصدر السابق، جـ١ ص: ١٧.

([٤٤]) يبدو أن الاختلاف في العدد هنا راجع إلى ضم رسالتين معًا.

([٤٥]) جمال الدين القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية –بيروت، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م، ص: ٦٧.

ونسبها بعضهم إلى مسلمة بن أحمد بن قاسم بن عبد الله المجريطي. وقال آخرون: هي من تصنيف بعض متكلمي المعتزلة في العصر الأول. وتفصيل ذلك فيما يلي:

– **نسبتها إلى جعفر الصادق:** يشير ابن تيمية إلى أنه أُضِيفَ إلَى جَعْفَر الصَّادِقِ كثير من الأكاذيب والأباطيل من الباطنية وغيرهم ممَا يُعْلَمُ أَن ذلك كَذِبٌ عليه؛ ((حَتَّى أُضِيفَ إلَيْهِ رسائل إخوان الصفا، وهذا في غاية الجهل؛ فإن هذه الرسائل إنما وضعت بعد موته بأكثر من مائتي سنة؛ فإنه توفي سنة ثمان وأربعين ومائة، وهذه الرسائل وضعت في دولة بني بويه في أثناء المائة الرابعة في أوائل دولة بني عبيد الذين بنوا القاهرة، وضعها جماعة؛ وزعموا أنهم جمعوا بها بين الشريعة والفلسفة؛ فضَلُّوا وأَضَلُّوا. وأصحاب جعفر الصادق الذين أخذوا عنه العلم؛ كمالك بن أنس وسفيان بن عيينة وأمثالهما من الأئمة أئمة الإسلام برآء من هذه الأكاذيب))[٤٦].

ويزيد ابن تيمية هذه النقطة تفنيدًا، فيقول في وضع آخر: ((ومن أكاذيبهم وزعمهم : أن هذه الرسائل من كلام جعفر بن محمد الصادق، والعلماء يعلمون أنها إنما وضعت بعد المائة الثالثة زمان بناء القاهرة، وقد ذكر واضعها فيها ما حدث في الإسلام من استيلاء النصارى على سواحل الشام ونحو ذلك من الحوادث التي حدثت بعد المائة الثالثة، وجعفر بن محمد – رضي الله عنه – توفي سنة ثمان وأربعين ومائة قبل بناء القاهرة بأكثر من مائتي سنة))[٤٧].

ويقول في موضع آخر: ((كتاب رسائل إخوان الصفا الذي صنَّفه جماعة في دولة بني بويه ببغداد، وكانوا من الصابئة المتفلسفة المتحنفة، جمعوا بزعمهم بين دين الصابئة المبدِّلِين وبين الحنيفية، وأتوا بكلام المتفلسفة، وبأشياء من الشريعة، وفيه من الكفر والجهل شيء كثير، ومع هذا فإن طائفة من الناس – من بعض أكابر قضاة النواحي – يزعم أنه من كلام جعفر الصادق. وهذا قول زنديق وتشنيع جاهل))[٤٨].

(٤٦) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، جـ ٣٥ ص: ١٨٣.
(٤٧) المصر السابق، جـ ٣٥ ص: ١٣٤ .
(٤٨) المصدر السابق نفسه، جـ٤ ص: ٧٩.

– وقال الصفدي: ((وزعم قوم أن الذي وضعها جماعة من علماء الفاطميين بمصر، كانت تُوجد رسالة بعد رسالة ملقاة في جامع عمرو بن العاص بمصر))[٤٩].

– **نسبتها إلى أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق:** ذهب د. عارف تامر في مقدمة تحقيقه للرسائل إلى أنها من تأليف أئمة الإسماعيلية، وأشار إلى أن مؤلف رسائل إخوان الصفا هو أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وتوفي أحمد بن عبد الله سنة ٢٦٥هـ، وهو المعروف بابن عبد الله بن ميمون القداح[٥٠]. وقد أثبتت الطبعة الهندية للرسائل اسم أحمد بن عبد الله المكتوم كمؤلف لها.

وكذلك ذكر الزركلي نسبة الرسائل للقداح، فقال في ترجمته: ((أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، المعروف عند الإسماعيلية بالمستور، والمنعوت بالإمام التقي وبالوفي، أحد من ينسب إليهم تصنيف (رسائل إخوان الصفا – ط) وينعتونها بأنها القرآن بعد القرآن، وأنها قرآن العلم، والقرآن قرآن الوحي، وهي قرآن الإمامة، وذلك قرآن النبوة. عاش المستور ومات في بلدة " سلمية " بسورية. ويقال: إن أباه بدأ تصنيف الرسائل، ولما مات، وخلفه في الإمامة ابنه صاحب الترجمة، جمع طائفة من علماء القوم، ووضعوا الرسائل))[٥١].

وقال البغدادي في هدية العارفين: ((ابن مكتوم السيد أحمد بن عبد الله بن محمد المكتوم ابن إسماعيل ابن الإمام جعفر الصادق العلوي الهاشمي، نزيل سلمة المتوفى بها في حدود سنة ٢١٥ خمس عشرة ومائتين. صنَّف رسائل إخوان الصفا وخلان المروة والوفا))[٥٢].

وأَرى أن هذه النسبة غير صحيحة؛ لوجود فارق زمني أكثر من مائة وخمسين عامًا بين وفاة أحمد بن عبد الله وبين ظهور الرسائل؛ إذ توفي أحمد بن عبد الله عام ٢١٥هـ، بينما وُضِعَتْ الرسائل في منتصف المائة الرابعة تقريبًا.

---

(٤٩) صلاح الدين الصفدي: الوافي بالوفيات، جـ ١٥ ص: ٣١ .

(٥٠) انظر: د.عارف تامر، مقدمة تحقيقه لرسائل اخوان الصفا وخلان الوفا ، منشورات عويدات- بيروت، ١٩٩٥م، جـ١، ص: ١٠ .

(٥١) خير الدين الزركلي الدمشقي: الأعلام، دار العلم للملايين- بيروت، ط: ١٥، ٢٠٠٢ م، جـ ١ ص: ١٥٥.

(٥٢) إسماعيل البغدادي: هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية استانبول ١٩٥١م، أعادت طبعه بالأوفست: دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، جـ ١ ص: ٤٦.

– **نسبتها إلى مسلمة بن أحمد بن قاسم بن عبد الله المجريطي:** وقد سُئِلَ ابن حجر الهيتمي: مَنْ صاحب رسائل إخوان الصفا؟ وما ترجمته؟ وما حال كتابه؟

فأجاب بقوله: ((نسبها كثير إلى جعفر الصادق– رضي الله عنه – ، وهو باطل، وإنما الصواب أن مؤلفها مسلمة بن أحمد بن قاسم بن عبد الله المجريطي، ويقال المرجيطي، ومجريط من قرى الأندلس، ويكنى أبا القاسم، كان جامعًا لعلوم الحكمة من الإلهيات والطبيعيات والهندسة والتنجيم وعلوم الكيمياء وطبائع الأحجار وخواص النبات، وإليه انتهى علم الحكمة بالأندلس، وعنه أخذ حكماء ذلك الإقليم، وتوفي بها في أواخر جمادي الآخرة سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة، وهو ابن ستين سنة))[٥٣].

وذكر ابن سبعين في رسائله أن مسلمة المجريطي هو صاحب رسائل إخوان الصفا[٥٤].

لكن هذه النسبة للرسائل غير دقيقة؛ لأن ابن المجريطي له كتاب بنفس العنوان؛ مما أوقع في هذا اللبس، ويؤكد هذا قول حاجي خليفة في كشف الظنون: ((وفي مفاتيح الكنوز في الصنعة: أنه لمسلمة بن وضاح المجريطي الأندلسي رسائل إخوان الصفا المتوفى سنة ٣٩٥ خمس وتسعين وثلاثمائة، أولها: (الحمد لله الذي خلق فسوى ...)، وهي نسخة مغايرة على نمط إخوان الصفا))[٥٥].

– **نسبتها إلى مجموعة من الحكماء من البصرة:** وهذا هو المشهور أن رسائل إخوان الصفا من تأليف جماعة من حكماء وفلاسفة البصرة، يقول صاحب تتمة صوان الحكمة: ((وأما أبو سليمان محمد بن معشر البستي ويعرف بالمقدسي، وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني، وأبو أحمد النهرجوري، والعوفي، وزيد بن رفاعه ، فهم حكماء اجتمعوا وصنَّفوا رسائل إخوان الصفا، وألفاظ هذا الكتاب للمقدسي))[٥٦].

---

(٥٣) ابن حجر الهيتمي: الفتاوى الحديثية، دار الفكر - بيروت، ص: ٩٣. وقارن: المحبي: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، مرجع سابق، جـ ٤ ص: ٨.

(٥٤) انظر: ابن سبعين: رسائل ابن سبعين، تحقيق: د. عبد الرحمن بدوي، الدار المصرية للتأليف والترجمة- القاهَرة، ١٩٥٦م، ص:٢٥٣.

(٥٥) حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مكتبة المثنى - بغداد، ١٩٤١م، جـ ١ ص: ٩٠٢. وقد ذكر د. عبد الرحمن بدوي في هامش تحقيقه لرسائل ابن سبعين إلى نشر د. جميل صليبا لرسائل إخوان الصفا لابن المجريطي، ضمن مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، عن مخطوطة الظاهرية تصوف ١٥٩ وغيرها. انظر: ابن سبعين ، رسائل ابن سبعين ، تحقيق د عبدالرحمن بدوي الهامش ص: ٢٥٣.

(٥٦) البيهقي، الشهير بابن فندمه: تتمة صوان الحكمة، ط لاهور – الهند، ١٣٥١هـ، ص:٢١.

وقد ذكر حاجي خليفة أن رسائل إخوان الصفا لمجموعة من المؤلفين الفلاسفة الحكماء، وهم: ((أبو سليمان محمد بن نصر البستي المعروف بالمقدسي، وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني، وأبو أحمد النهرجوري، والعوفي، وزيد بن رفاعة، كلهم حكماء اجتمعوا وصنَّفوا إحدى وخمسين رسالة))[٥٧].

ولعل هذا القول يعتمد على رأي أبي حيان التوحيدي الذي قاله في حديثه عن زيد بن رفاعة، في حوار بين أبي حيان التوحيدي والوزير صمصام الدولة بن عضد الدولة في حدود سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة، وقد ورد في أكثر من مرجع، فذكرها القفطي والمحبي وابن الملطي والصفدي وغيرهم، وهي تتلخص في أن الوزير قال له: ((أني لا أزال أسمع من زيد بن رفاعة قولا ومذهبًا لا عهد لي به... فقد بلغني أنك تغشاه، وتجلس إليه، وتكثر عنده، وتورق له، ولك معه نوادر مضحكة، وبوادر معجبة، ومن طالت عشرته لإنسان صدقت خبرته، وانكشف أمره له، وأمكن اطلاعه على مستكن رأيه وخافي مذهبه وعويص طريقته؟))

فقال أبو حيان: ((هناك ذكاء غالب وذهن وقّاد، ويقظة حاضرة، وسوانح متناصرة،...))

فقال الوزير: ((فعلى هذا ما مذهبه؟))

قال أبو حيان: ((لا ينسب إلى شيء، ولا يعرف برهط، لجيشانه بكلّ شيء، وغليانه في كل باب. ولاختلاف ما يبدو من بسطة تبيانه، وسطوته بلسانه، وقد أقام بالبصرة زمانا طويلا، وصادف بها جماعة جامعة لأصناف العلم وأنواع الصّناعة، منهم أبو سليمان محمد بن معشر البيستيّ، ويعرف بالمقدسيّ، وأبو الحسن علي بن هارون الزّنجانيّ، وأبو أحمد المهرجانيّ والعوفيّ وغيرهم، فصحبهم وخدمهم، وكانت هذه العصابة قد تآلفت بالعشرة، وتصافت بالصّداقة، واجتمعت على القدس والطّهارة والنصيحة، فوضعوا بينهم مذهبًا زعموا أنّهم قرّبوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله والمصير إلى جنّته، وذلك أنهم قالوا: الشريعة قد دُنّست بالجهالات، واختلطت بالضّلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة، وذلك لأنّها حاوية للحكمة الاعتقاديّة، والمصلحة الاجتهاديّة. وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال، وصنّفوا خمسين رسالة في جميع أجزاء الفلسفة:

(٥٧)حاجي خليفة : كشف الظنون ، جـ ١ ص: ٩٠٢.

علميّها وعمليّها، وأفردوا لها فهرستًا وسمّوها رسائل إخوان الصّفا وخلّان الوفاء، وكتموا أسماءهم، وبثّوها في الورّاقين، ولقّنوها الناس، وادّعوا أنّهم ما فعلوا ذلك إلا ابتغاء وجه الله عزّ وجلّ وطلب رضوانه ليخلّصوا الناس من الآراء الفاسدة التي تضرّ النفوس، والعقائد الخبيثة التي تضرّ أصحابها، والأفعال المذمومة الّتي يشقى بها أهلها، وحشوا هذه الرسائل بالكلم الدّينيّة والأمثال الشرعيّة والحروف المحتملة والطّرق الموهمة)).

فسأله الوزير: ((هل رأيت هذه الرسائل؟))

قال أبو حيان: ((قد رأيت جملة منها، وهي مبثوثة من كلّ فنّ نتفًا بلا إشباع ولا كفاية، وفيها خرافات وكنايات وتلفيقات وتلزيقات وقد غرق الصّواب فيها لغلبة الخطأ عليها.

وحملت عدّة منها إلى شيخنا أبي سليمان المنطقيّ السّجستانيّ (محمد بن بهرام) وعرضتها عليه، ونظر فيها أيامًا واختبرها طويلا، ثم ردّها عليّ، وقال: تعبوا وما أغنوا، ونصبوا وما أجدوا، وحاموا وما وردوا، وغنّوا وما أطربوا، ونسجوا فهلهلوا، ... ظنّ ما لا يكون ولا يمكن ولا يستطاع، ظنّوا أنهم يمكنهم أن يدسّوا الفلسفة– التي هي علم النّجوم والأفلاك والمجسطي والمقادير وآثار الطّبيعة، والموسيقي التي هي معرفة النّغم والإيقاعات والنّقرات والأوزان، والمنطق الّذي هو اعتبار الأقوال بالإضافات والكمّيّات والكيفيّات– في الشريعة، وأن يضمّوا الشريعة للفلسفة))[٥٨].

ولعل هذا الرأي الأخير الذي يثبت نسبة هذه الرسائل إلى جماعةٍ من أهل البصرة هو الأقرب إلى الحقيقة، ويشهد له كلام أبو حيان السابق، والذي توفي سنة ٤٠٠ هجرية، مما يؤكد معاصرته لمؤلفي الرسائل، ويشهد لهذا تأريخ ابن العبري لهذا الحوار في سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة[٥٩].

([٥٨]) أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة ، ص: ١٦٣- ١٦٦. وقارن: القفطي: أخبار العلماء بأخيار الحكماء، ص: ٦٨ – ٧٢. والمحبي: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، مرجع سابق، جـ ٢ ص: ٤٣٢. وصلاح الدين الصفدي: الوافي بالوفيات، جـ ١٥ ص: ٣١. وابن حجر العسقلاني: لسان الميزان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م جـ٢ ص: ٥٠٦ .

([٥٩]) انظر: ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، تحقيق: أنطون صالحاني اليسوعي، دار الشرق، بيروت، ط: ٢، ١٩٩٢م، جـ ١ ص: ١٧٧.

المبحث الثاني

فلسفة الأخلاق عند إخوان الصفا

أهمية الأخلاق

غاية الأخلاق عند إخوان الصفا دنيوية وأخروية، فالسلوك الحَسَن يسهم في عمران الدنيا ويفضي إلى السعادة في الآخرة، ومعرفة الأخلاق عندهم: ((من العلوم الشريفة النافعة جدًّا، وخاصة لمن له عناية برياضة النفس وتهذيبها وإصلاح أخلاقها، إذ كانت أخلاق النفوس هي أحد الأسباب المنجية لها من الهلكة))[٦٠].

ولا يمكن لأحد أن يصعد إلى ملكوت السموات وسعة الأفلاك والدخول في زمرة الملائكة إلا بعد عناية شديدة بتهذيب نفسه وإصلاح أخلاقه وتصحيح اعتقاده؛ فيجتهد في إصلاح ما هو فاسد منها، ويجتنب ما هو مذموم بحسب ما يوجبه عقله، ويؤدي إليه اجتهاده.

فمن أراد أن يكون من أولياء الله وحزبه فليقتدِ بأخلاق الكرام، وليترك أخلاق إخوان الشياطين، وفي ذلك يقولون: ((انظر الآن يا أخي– أيدك الله وإيانا بروح منه – إلى ما ذكرناه من أخلاق الكرام، وتفكر فيها إن كنت تريد أن تكون من أولياء الله وأهل جنته، ومن حزب ملائكته الكرام البررة؛ فاقْتدِ بهم وتَخَلَّقْ بأخلاقهم باجتهاد منك وروية، وعناية شديدة، وكثرة استعمال لها، وطول دربة بها، لتصير لك عادة وطبيعة وجبلة مركوزة، وتبقى في نفسك مصورة عند المفارقة، ودع أخلاق إخوان الشياطين وجنود إبليس أجمعين، واعلم علمًا يقينًا بأن ليس يصحب الإنسان بعد الموت عند مفارقة النفس الجسد، ويبقى معه من كل ما يملك في الدنيا من المال والأهل والمتاع، إلا ما كسبت يداه من هذه الأخلاق والأعمال المشاكلة لها، والعلوم والمعارف والآراء التي اعتقدها وأضمرها))[٦١].

---

(٦٠) إخوان الصفاء ، الرسائل، جـ١ ب، ص: ٤٨ . وأنبِّه القاري الكريم إلى أن المجلد الأول من الرسائل طبعة الهند تكرر فيها الترقيم، فبدأت من الرسالة الأولى حتى الخامسة من ص: ١ إلى ص: ١٤٤. ثم تكرر الترقيم للرسائل من السادسة حتى الرابعة عشرة من ص: ١ إلى ص: ١٤٦ . وسوف نشير إلى الأرقام المكررة ب : (جـ ١ ب) .

(٦١) المصدر السابق، جـ١ ب، ص: ٦٤، ٦٥.

ونقف في هذا المبحث وقفة مع إخوان الصفا وفلسفتهم الأخلاقية من خلال توضيح مفهومهم للأخلاق وللخير والشر، ونظرتهم إلى الطبيعة الإنسانية، وأنواع الأنفس ومراتب الناس في الأخلاق، وذلك فيما يلي:

أولا: مفهوم الأخلاق:

يرى إخوان الصفا أن الأخلاق إما أن تكون طبيعية فطرية، وإما أن تكون مكتسبة معتادة من كثرة الاستعمال. وهم يطلقون على الأخلاق الطبيعية الفطرية الأخلاقَ المركوزة في الجبلة، ويعرفونها بقولهم: ((هي تهيؤٌ ما في كل عضو من أعضاء الجسد يسهل به على النفس إظهار فعل من الأفعال، أو عمل من الأعمال، أو صناعة من الصنائع، أو تعلم علم من العلوم، أو أدب من الآداب، أو تدبيرًا وسياسة، من غير فكر ولا روية))[٦٢].

ومن الواضح أن تعريف إخوان الصفا للأخلاق لا يخرج عن تعريف الفلاسفة والحكماء المسلمين، وهو التعريف الذي نقله مسكويه عن أرسطو بأنها: ((حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية))[٦٣].

فالأخلاق هيئة راسخة في النفس يصدر عنها الفعل دون تفكير وترو، أو هي ((ملكة تصدر بها الأفعال عن النفس من غير تقدم روية وفكر وتكلف))[٦٤].

وهذه الأخلاق مركوزة في جِبِلَّة الإنسان وخِلْقته، وبذلك يسهل على كل عضو في الجسد إظهار الأفعال التي في جبلته، فمتى طُبع الإنسان على خُلُقٍ ما سَهُل عليه الإتيان به، ويضرب إخوان الصفا لذلك مثالا: بأنه متى كان الإنسان مطبوعًا على الشجاعة فإنه يسهل عليه الإقدام على الأمور المُخَوِّفة من غير فكر ولا روية، ومتى كان مطبوعًا على السخاء يسهل عليه بذل العطية من غير فكر ولا روية، ومتى كان مطبوعًا على العفة سهل عليه اجتناب المحظورات المحرمات من غير فكر ولا روية، وعلى هذا المثال والقياس سائر

([٦٢]) المصدر السابق نفسه ، جـ١ ب، ص:٤٤ .

([٦٣]) ابن مسكويه: تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، تحقيق: ابن الخطيب، المطبعة المصرية ومكتبتها، ١٣٩٨هـ، ص : ٤١ .

([٦٤]) د جميل صليبا: المعجم الفلسفى ، مادة أخلاق، دار الكتاب اللبنانى –بيروت ١٩٧١ م، جـ١ ص: ٤٩.

الأخلاق والسجايا المطبوعة في الجبلة المركوزة فيها، إنما جعلت لكيما يسهل على النفس إظهار أفعالها وعلومها وصنائعها وسياساتها وتدبيرها بلا فكر ولا روية[٦٥].

ولما كانت هذه الأخلاق الفطرية استعداد وتهيؤ فطري في كل عضو من أعضاء الجسد يسهل به على النفس إظهار الأفعال من غير فكر أو روية – فإن هذا التهيؤ والاستعداد لتقبل جميع الأخلاق والنموذج الكامل لظهور كل الأفعال لا ينحصر في شخص واحد، وإنما يكون في مجموع بني الإنسان، وهو ما يطلق عليه إخوان الصفا بالإنسان المطلق، وفي هذا يقولون: ((ولو كان الإنسان الواحد مطبوعًا على جميع الأخلاق، لما كان عليه كلفة في إظهار كل الأفعال وجميع الصنائع، ولكن الإنسان المطلق هو الذي مطبوع على قبول جميع الأخلاق، وإظهار جميع الصنائع والأعمال. واعلم بأن كل الناس أشخاص لهذا الإنسان المطلق، وهو الذي أشرنا إليه أنه خليفة الله في أرضه منذ يوم خلق آدم أبو البشر إلى يوم القيامة الكبرى، وهي النفس الكلية الإنسانية الموجودة في كل أشخاص الناس))[٦٦].

ويشير الدكتور عبد اللطيف العبد إلى أن إخوان الصفا يقصدون بالإنسان المطلق هنا هو الإمام عندهم تبعًا لعقيدتهم الباطنية، إذ يقول في ذلك: ((... جعل إخوانُ الصفا الأخلاقَ فيضًا من النفس الكلية التي تلقت هي الأخلاق بدورها من العقل الأول. والنفس الكلية هي رمز الإمام المعصوم كما هو معروف في المذهب الإسماعيلي، وكأن إخوان الصفا هنا يريدون أن يجعلوا من الإمام المصدر الوحيد لتلقى الأخلاق، وهم يطلقون على النفس الكلية اسم الإنسان المطلق الذي هو خليفة الله في أرضه من آدم إلى يوم القيامة الكبرى، التي هي رمز لانتصار الدعوة الإسماعيلية. والنفس الكلية – أو الإنسان المطلق – قد حازت كل أنواع الأخلاق؛ وهى بهذا تختلف عن الإنسان العادي))[٦٧].

ومع تقديري لهذا الرأي الذي ينم عن فهم عميق لعقيدة إخوان الصفا كشيعة إسماعيلية، لكني لا أذهب إلى هذا القول، وإنما أرى أن كلام الإخوان يُصَرِّح بأن المقصود من الإنسان المطلق هنا هو مجموع بني البشر، فكل فرد يُظهر خلقًا معينًا ، ومن مجموع البشر كلهم

(٦٥) انظر: إخوان الصفاء ، الرسائل ، جـ١ ب، ص: ٤٤ .
(٦٦) المصدر السابق، جـ١ ب، ص: ٤٤، ٤٥ .
(٦٧) د . عبد اللطيف محمد العبد: الإنسان في فكر إخوان الصفا،مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة ، سنة ١٩٧٦ ، ص: ٨٦ .

تظهر الأخلاق كلها كاملة، ولذا قالوا فيما سبق: ((واعلم بأن كل الناس أشخاص لهذا الإنسان المطلق))، ويقولون بعدها : ((واعلم يا أخي– أيدك الله وإيانا بروح منه– بأن هذا الإنسان المطلق الذي قلنا هو خليفة الله في أرضه هو مطبوع على قبول جميع الأخلاق البشرية، وجميع العلوم الإنسانية والصنائع الحكمية هو موجود في كل وقت وزمان، ومع كل شخص من أشخاص البشر، تظهر منه أفعاله وعلومه وأخلاقه وصنائعه، ولكن من الأشخاص من هو أشد تهيؤًا لقبول علم من العلوم، أو صناعة من الصنائع، أو خلق من الأخلاق، أو عمل من الأعمال؛ والإظهار بحسب ذلك يكون))[٦٨]. ويوضحون ذلك صراحة، فيقولون في موضع آخر من الرسائل: ((ثم اعلم أن هذه الخِصال والمناقب كلّها لا يمكن أن تجتمع في شخص واحد، فمن أجل هذا فُرِّقَتْ في جميع أشخاص الإنسان))[٦٩].

وإذا لم تكن الأخلاق مَلَكة عند صاحبها، بل كان مطبوعًا على الضد منها فهو محتاج إذن إلى التأمل الشديد والروية والكلفة، ومن ثم فإن الأخلاق المكتسبة هي التي تحتاج إلى روية وتفكير قبل الإقدام على الفعل.

وهكذا فإن الإخوان يرون أن الأخلاق مكتسبة بالعادات الجارية، وهي تضاف إلى الطباع المركوزة في جبلة الإنسان، وذلك عن طريق العادات وغيرها من الوسائل التي يتم بها اكتساب الأخلاق، ولذا قالوا في مقدمة رسالتهم في الأخلاق: ((فنريد أن نذكر في هذه الرسالة ما ينضاف إلى تلك الطباع المركوزة في الأخلاق المكتسبة بعد الولادة بالعادات الجارية، والأسباب الداعية المؤكدة لها))[٧٠].

وقد بدءوا الفصل الأول من تلك الرسالة بتوضيح ذلك، فأسموه: " فصل في قابلية الإنسان جميع الأخلاق".

فإذا حاولت النفس أن تفعل عكس الأخلاق المطبوعة فيها فإنها تحتاج إلى فكر وروية واجتهاد وكلفة شديدة، وفي هذه الحال يكون الإنسان بحاجة إلى محفزات لاكتساب هذا النوع من الأخلاق وبحاجة إلى دوافع للإقدام على هذه السلوكيات، ومن هذه الدوافع الأوامر والنواهي الشرعية والوعد والوعيد والترغيب والترهيب، وهي لها دور كبير في تعويد الإنسان

(٦٨) إخوان الصفاء ، الرسائل ، جـ١ ب، ص: ٤٥ .
(٦٩) المصدر السابق، جـ٤، ص: ٤٤.
(٧٠) المصدر السابق، جـ١ ب، ص: ٣٨ .

على ما يخالف طبعه وجبلته. يقول إخوان الصفا: ((وأما من كان مطبوعًا على الضد من ذلك فهو يحتاج عند استعمال هذه الخصال وإظهار هذه الأفعال إلى فكر وروية واجتهاد شديد وكلفة، ولا يفعل الإنسان هذه الأمور إلا بعد أمر ونهي، ووعد ووعيد، ومدح وذم، وترغيب وترهيب. وعلى هذا المثال يكون كل حكم في الطبع خلافه، يحتاج صاحبه إلى أمر ونهي وفكر واجتهاد ورغبة. وبهذه العلة وردت أكثر أوامر الناموس ونواهيه؛ ولهذا السبب كان وعده ووعيده وترغيبه وترهيبه))[٧١].

وبهذا يفسر إخوان الصفاء ماهية الناموس الإلهي، ويبررون وجود الأنبياء والمرسلين لهذه الفئة من الخَلْق ذوي النفوس المريضة، إذ لا يمكنها أن تستقيم وتحتفظ بصفاتها وروحانيتها إلا بالإرشاد والتوجيه وما يستتبعه من ورغبة وهبة وأمر ونهي[٧٢].

والجدير بالذكر أن في كلام إخوان الصفا السابق ((إشارة إلى أن الأديان قد جاءت تحارب عوجًا طبيعيًّا غير مكتسب في أخلاق الإنسان، وهذا العوج الخلقي آتٍ من موجبات النجوم، فهو قدر محتوم على الإنسان، وبالرغم من ذكرهم الطبع هنا فإنهم قرروا أيضا وجود أخلاق مكتسبه من البيئة الاجتماعية أو الطبيعية وغير ذلك))[٧٣].

كذلك في كلامهم إشارة إلى أهمية الدوافع في اكتساب الأخلاق والسلوكيات، لأن الدوافع تجعل الإنسان يفكر ويوازن بين الأمور، وذلك لأنها ((حالة جسمية أو نفسية داخلية " تَكَوُّن فرضي" يؤدى إلى توجيه الكائن الحي تجاه أهداف معينة، ومن شأنه أن يقوى استجابة محددة من بين عدة استجابات يمكن أن تقابل مثيرًا محددًا))[٧٤].

وتتميز الدوافع بأنها تبعث على مكارم الأخلاق وعلى الطاعات والعمل الصالح، وقد ذكر الإخوان – فيما سبق – أمثلة لدوافع وبواعث خارجية لا تصدر من داخل الإنسان كالأمر والنهي، والوعد والوعيد، والمدح والذم، والترغيب والترهيب.

---

(٧١) المصدر السابق نفسه، جـ١ ب، ص: ٤٤ .

(٧٢) انظر: د. عبد الأمير شمس الدين: الفكر التربوي عند إخوان الصفاء من خلال رسائلهم، الشركة العالمية للكتاب- بيروت، ١٩٨٨م، ص: ٨٩ ،٩٠.

(٧٣) د . عبد اللطيف محمد العبد: الإنسان في فكر إخوان الصفا، ص: ٨٧.

(٧٤) د حامد عبد السلام زهران: علم النفس الاجتماعي، عالم الكتب- القاهرة، ط٥، ١٩٨٤م، ص: ١٠٥ .

وإذا كان الإخوان قد أكَّدوا على تأثير الفطرة في الأخلاق، وقالوا بأن الأخلاق الفطرية مركوزة في الجبلة عندما يكون الإنسان جنينًا في بطن أمه، فقد قالوا في الوقت نفسه بإمكانية تغير الفطري أو تعديله أو تطويره؛ ذلك أن حياة الإنسان منذ الولادة تفعل فعلها في اكتساب ما هو محمود أو مذموم، فكل إنسان لديه استطاعة لعمل الخير واستطاعة أيضًا لعمل الشر. وأخلاق الإنسان كثيرة التغيير تتأثر بما يحدث له إبان رحلة عمره من غنى وفقر ومرض ... إلخ. وتتأثر كذلك بالتربية والمجتمع ... وغير ذلك من المؤثرات التي تُوجِد له خُلُقًا جديدًا وسجية أخرى.

وفي أثر التربية في أخلاق الصبيان يقول إخوان الصفا: ((واعلم بأن العادات الجارية والمداومة فيها تقوي الأخلاق المشاكلة لها، كما أن النظر في العلوم والمداومة على البحث عنها والدرس لها والمذاكرة فيها يقوي الحذق بها والرسوخ فيها؛ وهكذا المداومة على استعمال الصنائع والدؤوب فيها يقوي الحذق والأستاذية فيها؛ وهكذا جميع الأخلاق والسجايا. والمثال في ذلك أن كثيرًا من الصبيان إذا نشئوا مع الشجعان والفرسان وأصحاب السلاح، وتربوا معهم، تطبعوا بأخلاقهم، وصاروا مثلهم؛ وهكذا أيضًا كثير من الصبيان إذا نشئوا مع النساء والمخانيث والمعيوبين، وتربوا معهم، تطبعوا بأخلاقهم، وصاروا مثلهم، إن لم يكن في كل الخُلُق ففي بعض. وعلى هذا القياس يجري حكم سائر الأخلاق والسجايا التي يتطبع عليها الصبيان منذ الصغر، إما بأخلاق الآباء والأمهات والأخوة والأخوات والأتراب والأصدقاء والمعلمين والأستاذين والمخالطين لهم في تصاريف أحوالهم. وعلى هذا القياس كل الآراء والمذاهب والديانات جميعًا))[٧٥].

بل ذهبوا إلى ما هو أبعد من ذلك عندما توصلوا إلى أن المكتسب مع طول الزمان يمكن أن يغدو فطريًّا، فيصير ما اعتاده من الأخلاق طبعًا لازمًا له؛ فالعادة توأم الطبيعة[٧٦].

وينبغي الإشارة إلى أن إخوان الصفا قد فلسفوا الأخلاق، ونظروا إليها على أنها تمتد إلى جذور عميقة في طبيعة النفس البشرية، وهي – بنوعيها المحمود والمذموم – ترجع إلى مصدرين اثنين: الأول فطري مطبوع في النفس ومركوز فيها نتيجة استيلاء أحد الكواكب

(٧٥) إخوان الصفا، الرسائل ، جـ ١ ب ص: ٤٥ .
(٧٦) انظر: د. محمود إسماعيل عبد الرازق: إخوان الصفا رواد التنوير في الفكر الغربي، ص: ١١٨. وانظر: الرسائل، جـ ٤ ص: ١٩.

على المرء أثناء ولادته. والثاني مكتسب ومعتاد نتيجة جريان العادة وكثرة الاستعمال . وهذا النوع من الأخلاق هو الذي يرافق النفس بعد مفارقتها الجسد، وعليه تعاقب أو تثاب، ويكون أحد الأسباب المنجية للنفس من المهلكة إلى جانب بعض المكتسبات الأخرى(٧٧).

ولعله من حسن الترتيب عندهم أنهم تحدثوا عن ماهية الأخلاق بين عاملين من عوامل وأسباب اختلاف الأخلاق بين الناس: الأول: ما توجبه أحكام النجوم – كما يزعمون– ومن ثم كان تعريفهم للأخلاق الجبلية الطبيعية التي فطر عليها الإنسان.

ثم ذكروا أنه بالعادة والمران والمداومة يكتسب الإنسان الأخلاق، ومن ثم ذكروا السبب الثاني لاختلاف الأخلاق وهو عن طريق العادة، ومن ثم كان من المساق الطبيعي والمنطقي أن يتكلم إخوان الصفا عن اكتساب الأخلاق والسجايا عن طريق العادات الجارية والمداومة والأهل والأخوة والأتراب والأصدقاء...إلخ.

ثانيًا: مفهوم الخير والشر:

تساءل إخوان الصفا: ما الخير وما الشر؟ وما المذموم من الأخلاق وما المحمود منها؟ ومتى يكون الإنسان مثابًا أو معاقبًا؟ ومن أجل الإجابة عن هذه التساؤلات كان لهم فصل في رسالتهم في الأخلاق بعنوان "في ترتب الأخلاق على بعضها وكونها فضيلة أو رذيلة"

وفيه يشيرون إلى أن الطبيعة إذا أَصَّلَتْ خُلقًا وركَّزته في الجبلة، جاءت النفس بالاختيار فأظهرته وبيَّنته، ثم جاء العقل بالفكر والروية، فتمَّمه وكمَّله، ثم جاء الناموس بالأمر والنهي فسوَّاه وقوَّمه وعدَّله. وتسمى تلك الأفعال خيرًا أو شرًا بحسب ما يصدر عن الطبيعة والجبلة، وما تظهره النفس ويُقره العقل، فإذا كانت الشهوات التي دُفِعَتْ إليها موافقة لما ينبغي فهي خير، وإلا فهي شر. يقول الإخوان: ((متى ظهرت من الطبيعة هذه الشهوات المركوزة في الجبلة، وكانت على ما ينبغي، في الوقت الذي ينبغي، من أجل ما ينبغي، سميت خيرًا؛ ومتى كانت بخلافه سميت شرًا))(٧٨).

(٧٧) انظر: د. عبد الأمير شمس الدين: الفكر التربوي عند إخوان الصفاء، ص: ٨٩، ٩٠.
(٧٨) إخوان الصفا ، الرسائل ، جـ١ ب، ص: ٥٤ .

ويقولون: ((كل شيء إذا فُعِلَ منه ما ينبغي على الشرائط التي تنبغي، في المكان الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي، من أجل ما ينبغي، يسمى ذلك خيرًا. ومتى نقص من هذه الشرائط واحدٌ يسمى ذلك الأمر شرًّا))[٧٩].

وقد نظر إخوان الصفا إلى الخير نظرة مطلقة مجردة من كل نفع عاجل أو آجل، ثم لا بد من فعل الخير للخير ولو كان للعدو. والأخيار هم الذين يعملون ما رسم لهم في النواميس الإلهية[٨٠]، ويفعلون ما أوجبته العقول السليمة، ولا يطلبون على ذلك عِوَضًا من جَرِّ منفعة إلى أجسادهم أو دفع مضرة عنها. فعند ذلك يقال لهم أخيار على الإطلاق، من أجل ذلك يدعون إلى أن تكون أخلاق المرء رصينة وعاداته جميلة وأفعاله مستقيمة، فيؤدي الأمانة إلى أهلها، كائنًا مَنْ كان من ولي أو عدو، ويأخذ نفسه بحفظها، ويراعي حق من استرعاه حقها، ويُحْسِن مجاورة جاره مع قلة الطمع. ثم يريد للغير ما يريده لنفسه، ((وسبيلك أن تعود نفسك عمل الخير لأنه خير. لا تريد بفعلك عِوَضًا، ولا يحملك على فعله خوف، فمتى فعلت لطلب المكافأة لم يكن عملا خَيِّرًا – وإن لم تطلب المكافأة – وإنما أردت من عمل الخير الذكر والاسم كنت أيضًا منافقًا، ولم يكن عملك خَيِّرًا. والمنافق لا يستأهل أن يكون في جوار الروحانيين))[٨١].

فهم يرون أن الخير يراد من أجل ذاته، فهو غاية قصوى كالسعادة، ويستشهدون على ذلك بقول الحكماء والفلاسفة: ((كل شيء يراد فهو من أجل الخير، والخير يراد من أجل ذاته، والخير المحض السعادة، والسعادة تراد لنفسها لا لشيء آخر))[٨٢].

ويلاحظ أن فكرة عمل الخير من أجل ذاته من الأفكار الأجنبية التي تسربت إلى المسلمين من الخارج، وتكمن خطورتها في أنها تفصل فكرة الخير عن الثواب الإلهي الذي ينتظر صاحبه في الآخرة ، كما يحدث نفس الشيء بالنسبة إلى فكرة الامتناع عن الشر،

---

(٧٩) المصدر السابق، جـ٤ ، ص: ٥٦ .

(٨٠) وخصال الخير أو الشر المكتسبة تنقسم عندهم إلى عقلية ووضعية، ((والوضعية منها هو كل شيء أمر به الناموس، أو حثَّ عليه أو مدحه، فيسمى ذلك خيراً . أوكل شيء نهى عنه أو زجر عنه يسمى ذلك شرًّا)) الرسائل، جـ٤ ص: ٥٦ .

(٨١) إخوان الصفا، الرسائل ، جـ٤ ص: ٢٧١. وانظر: د. محمد جبر: النزعة الإنسانية في فلسفة إخوان الصفا، دار دمشق- دمشق- سوريا، ١٩٩٣م، ص: ٨٥، ٨٦ .

(٨٢) إخوان الصفا، الرسائل ، حـ١ ص: ٥٣ .

ومن المعروف أن هذه الأفكار مما شاع في عالم التصوف، وتصدى له علماء المسلمين(٨٣).

كما يشير إخوان الصفا إلى أن معيار الفضيلة ومعرفة الخير من الشر يكمن في العقل والشرع، فعن طريقهما يكون التحسين والتقبيح، وفي ذلك يقولون: ((من الأخلاق المكتسبة ما هي مذمومة وما هي محمودة، وإن المحمودة منها ما هي بموجب العقل وقضاياه، ومنها ما هي بموجب أحكام الناموس وأوامره، وهكذا حكم المذمومة منها))(٨٤).

ثالثًا: نظرتهم إلى الطبيعة الإنسانية:

حدَّثنا القرآن الكريم عن خَلْق الإنسان وتكوينه من جسم يشده إلى الأرض، له دوافعه وشهواته، ورُوح شفَّافة تتطلع إلى السماء، وهذه الطبيعة المزدوجة هي فِطْرة طبيعية في خَلْق الإنسان، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الطبيعة المزدوجة في قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (٨٥).

فطبيعة الإنسان روح وجسد، بهما تتم الحياة، ولا يجوز للمؤمن أن ينكر أحدهما فى سبيل الآخر؛ فلا يبخس الجسد حقه ليوفى حقوق الروح، ولا يبخس الروح حقها ليوفى حقوق الجسد. ومعرفة طبيعة الإنسان أمر مهم لارتباط ذلك بالفهم الصحيح لخَلْق الإنسان وتكوينه، ومن ثم يكون الأسلوب الصحيح فى تفسير سلوكه وتوجيهه بما يتوافق مع جبلته المزدوجة من جسد وروح، دون أن يتم التركيز على جانب مع إهمال الجانب الآخر، وإنما لابد من التوازن بين المادة والروح(٨٦).

وقد اهتم إخوان الصفا بالنفس البشرية، وتحدثوا عن طبيعتها وقواها المختلفة، فالإنسان – عندهم – هو ذلك الكائن المكون من جوهرين مختلفين ومتناقضين في الطبيعة والماهية، وهما الجسد والروح، فالجسد ذو طبيعة مادية، وماهيته الشوق والنزوع إلى أصله، والروح ذات طبيعة روحية، وماهيتها الشوق والنزوع إلى أصلها الروحاني لتحيا الحياة الأبدية بجوار

(٨٣) انظر: د. حامد طاهر: الفلسفة الإسلامية مدخل وقضايا ، ص: ٢٠١ .
(٨٤) إخوان الصفاء ، الرسائل، جـ١ ب، ص: ٦٥ .
(٨٥) سورة ص، الآيتان : ٧١، ٧٢ .
(٨٦) انظر: د عبد المقصود عبد الغنى : أصول العقيدة الإسلامية، مكتبة الزهراء – القاهرة ١٤٠٦هـ ص: ١٣.

بارئها بعد الانفصال عن الجسد. وفي هذا يقول الإخوان: ((فبدأ أولًا ربنا تعالى فبنى لخليفته هيكلًا من التراب عجيب البنية، ظريف الخِلْقة، مختلف الأعضاء، كثير القُوَى، ثم ركَّبها وصوَّرها في أحسن صورة من سائر الحيوانات، ليكون بها مفضلًا عليها، مالكًا لها، متصرفًا فيها كيف يشاء؛ ثم نفخ فيه من روحه، فقرن ذلك الجسد الترابي بنفس روحانية من أفضل النفوس الحيوانية وأشرفها، ليكون بها متحركًا حسَّاسًا درَّاكًا علامًا عاملاً فاعلًا ما يشاء؛ ثم أيَّد نفسه بقوى روحانية سائر الكواكب في الفلك، ليكون متهيئًا له بها، وممكنًا له قبول جميع سائر الأخلاق، وتعلم جميع العلوم والآداب والرياضيات والمعارف والسياسات، كما مكَّنه وهيَّأ له بأعضاء بدنه المختلفة الأشكال والهيئات تعاطي جميع الصنائع البشرية، والأفعال الإنسانية، والأعمال المَلَكية))[٨٧].

هذه هي نظرة إخوان الصفا إلى طبيعة الإنسان، فهو عقل وشهوة، أو روح وجسد، فالروح وهي الجزء النوراني من الإنسان قد ارتبطت بالجسد من أجل غاية هي تكميل فضائلها، وذلك لتفعل الفضائل والخيرات الموجودة فيها بالقوة والإمكان، وتظهر وتتحقق بالفعل في عالم الدنيا، ولما لم يكن يتحقق ذلك إلا من خلال امتزاج الروح بالجسد كان هذا الارتباط والتزاوج بينهما.

وهكذا فطر الإنسان على تلك الطبيعة المزدوجة، منذ خلق الله آدم من طين وروح؛ ولذا فإن سعادة الإنسان لا تتحقق إلا بتحقيق التوازن بين عنصريه وتلبية متطلبات وحاجات كل منهما دون إهمال أحدهما.

وهكذا ((اجتمع في خلق الإنسان قبضة من طين الأرض إلى نفخة من روح الله، فمن عرف جانب الطين ونسى الروح لم يعرف حقيقة الإنسان، ومن أعطى الجانب المادي حاجته، ولم يعط الجانب الروحي غذاءه من الإيمان ومعرفة الله فقد بخس الفطرة الإنسانية حقها، وجهل قدرها، وحرمها ما به حياتها وقوامها، ولم يتسق معها أو يسايرها))[٨٨].

والطبيعة المزدوجة للإنسان تُمكنه من أداء وظيفته في إعمار الأرض والسعي لكسب المعاش من أجل الحياة والبقاء في الدنيا، كما تمكنه من الارتقاء الروحي بفعل الخيرات

(٨٧)إخوان الصفاء ، الرسائل، جـ١ ب، ص: ٣٨، ٣٩ .
(٨٨) د محمد الشرقاوى :دراسات فى العقيدة الإسلامية، مكتبة الزهراء – القاهرة ١٤١٠ هـ ١٩٨٩م ص: ١٠ .

والفضائل. وبتحقيق متطلبات كل من الجسد والروح وعدم الاهتمام بجانب على حساب الآخر يتحقق التوازن بينهما.

كما يشير الإخوان إلى أن تركيب الإنسان يمكنه من قبول جميع الأخلاق، وإظهار جميع الأفعال، واكتساب الفضائل والكمالات، ليتمكن – كما يقول الإخوان – من التشبه بإلهه وباريه ، فيدبر نفسه ويسوسها سياسة ربانية، يقول إخوان الصفا: ((واعلم يا أخي بأن النفوس الجزئية إنما ربطت بأجسادها التي هي أجسام جزئية، كيما تكمل فضائلها، وتخرج كل ما في القوة والإمكان إلى الفعل والظهور من الفضائل والخيرات. ولم يمكن ذلك إلا بارتباطها بهذه الأجساد وتدبيراتها لها))[٨٩].

فخلاص الإنسان يكمن في معرفة طبيعة خواص هذين الجوهرين الروح والجسد، والمصير الذي سيئول إليه كل منهما، والعاقل هو من يسعى وراء السعادة الأبدية في الحياة الآخرة، ولا يتحقق هذا إلا بعودة الروح إلى أصلها ومبدئها عن طريق تحقيق ماهيتها؛ فلا ينصرف كلية إلى الروح ولا يستغرق كذلك فى الجسد، وإنما يحقق التوازن بينهما؛ فينال الفلاح فى هذه الدنيا وفى الآخرة.

رابعًا: أنواع الأنفس ومراتبها:

تحدث إخوان الصفا عن مراتب النفوس، – وهم يعنون بها أنواع المخلوقات–، فذكروا أنها ثلاثة أنواع رئيسية، هي مرتبة الأنفس الإنسانية، والمرتبة التي فوقها، والمرتبة التي دونها؛ ثم قسَّموا ما فوق المرتبة الإنسانية إلى سبع مراتب، وما دون الإنسانية إلى سبع أيضًا، فكانت جملتها خمس عشرة مرتبة.

وأشار الإخوان إلى أنه يمكن لكل عاقل أن يعرف خمسًا من هذه المراتب ويحس بها، منها اثنتان فوق رتبة الإنسانية وهي رتبة المَلَكية والقدسية – ورتبة المَلَكية هي رتبة الحكمية، ورتبة القدسية هي رتبة النبوة والناموسية – واثنتان دونها وهي مرتبة النفس النباتية والحيوانية[٩٠].

([٨٩]) إخوان الصفاء ، الرسائل ، جـ١ ب، ص: ٥٣ .
([٩٠]) انظر: المصدر السابق، جـ١ ب، ص: ٤٨.

وإن المرء ليعجب من تحديدهم مراتب الأنفس في خمس عشرة مرتبة، ثم لم يذكروا منها إلا خمسة فقط زاعمين أن باقي المراتب التي دون النباتية وفوق القدسية بعيدة معرفتها على المرتاضين بالعلوم الإلهية، فكيف على غيرهم؟!.

ولعل الدافع إلى تقسيمهم لمراتب الأنفس بذكر سبعة مراتب دون الإنسانية وسبعة فوقها إلى تأثرهم بالعقيدة الشيعية الإسماعيلية التي تجعل الإمامة تنتهي عند الإمام السابع، ومن ثم يقدسون هذا الرقم.

وعلى أية حال فقد تحدثوا بعد ذلك عما يخص كل نوع من هذه النفوس الخمس من المعونة والتأييد، زاعمين أن هذه النفوس تنتقل من رتبتها إلى الرتبة التي تعلوها، وقد أيَّد الله الأنفس الجزئية بالأجسام الجزئية، وأعانها جودًا منه ولطفًا بها، ((فكلما بلغت نفس منها رتبة ما أمدَّها بزيادة فضلاً منه وجودًا، أو نقلها إلى ما فوقها وأرفع منها وأعز وأشرف وأجل وأكرم، كل ذلك ليبلغها إلى أقصى مدى غاياتها وتمام نهاياتها))[٩١].

وإذا كان الإنسان يصل إلى درجة الملائكية، فإنه طبقًا لكلام إخوان الصفا فإن الحيوانات تنتقل إلى مرتبة الإنسان!، وفي ذلك يقولون: ((واعلم يا أخي- أيدك الله وإيانا بروح منه- بأن الباري- جل ثناؤه- لما رتَّب النفوس مراتبها كمراتب الأعداد المفردات، على ما اقتضت حكمته، جعل أولها متصلًا بآخرها، وآخرها متصلًا بأولها، بوسائطها المرتبة بينهما، لترتقي بها ما دونها إلى المرتبة التي فوقها، ليبلغها إلى مدى غاياتها وتمام نهاياتها، وذلك أنه رتب النفوس النباتية تحت الحيوانية وجعلها خادمة لها، ورتب الحيوانية تحت الناطقة الإنسانية وجعلها خادمة لها، ورتب الناطقة الإنسانية تحت العاقلة الحكمية وجعلها خادمة لها، ورتب العاقلة تحت الناموسية وجعلها خادمة لها، ورتب الناموسية تحت الملكية وجعلها خادمة لها؛ فأية نفس منها انقادت لرئيسها وامتثلت أمره في سياستها، نقلت إلى مرتبة رئيسها، وصارت مثلها في الفعل!))[٩٢].

(٩١) المصدر السابق، جـ١، ص: ٤٩ .
(٩٢) المصدر السابق نفسه ، جـ١ ب ، ص: ٥٤ .

ويضربون لذلك مثالا بالتلميذ أو المتعلم في علم أو صناعة إذا امتثل أمر أستاذه، وانقاد لمعلمه وداوم عليه، فإنه سيصير يومًا ما إلى مرتبة أستاذه، ويصير مثل معلمه؛ وعلى هذا المثال يكون تنقل النفوس في مراتبها[٩٣].

وهذا مثال ساذج من إخوان الصفا، وشتان بينه وبين ما يزعمون من انتقال النفوس، وليته كان انتقالا معنويًّا في الدرجة والرتبة، وإنما هو انتقال حقيقي عندهم، يشمل كل النفوس بما فيها الحيوانية، وقد أكَّدوا على ذلك يقولهم: ((أحق النفوس الحيوانية أن تنقل إلى رتبة الإنسانية التي هي الخادمة للإنسان، المستأنسة به، المنقادة لأمره، المتعوبة في طاعته، الشقية في خدمته، وخاصة المذبوحة منها في القرابين. وعلى هذا المثال والقياس حكم النفوس الإنسانية، فإن أحقها أن تنتقل إلى رتبة الملائكة التي هي خادمة في أوامر الناموس ونواهيه، المنقادة لأحكامه، المتعوبة في حفظ أركانه))[٩٤].

وتحدث الإخوان عن الشهوات المركوزة في الجبلة والقوى الطبيعية المعينة لها، فالنفس النباتية تخصها شهوة الغذاء، والنفس الحيوانية تخصها – بالإضافة إلى ما تقدم في النباتية – شهوة الجماع، وشهوة الانتقام، وشهوة الرياسة، ((وأما المنسوبة إلى النفس الناطقة المختصة بها زيادة على ما تقدم ذكره، فهو شهوة العلوم والمعارف والتبحر والاستكثار منها، وشهوة الصنائع والأعمال والحذق فيها والافتخار بها، وشهوة العز والرفعة والترقي في غايات نهاياتها، والشوق إليها والرغبة فيها، والحرص في طلبها، واحتمال الذل والمشقة من أجلها، والفرح والسرور من وجدانها، واللذة والراحة عند الوصول إليها، والغم والحزن من فقدانها))[٩٥].

أما النفس الحكمية فشهوتها العلوم والمعارف، وأما النفس الملكية القدسية فشهوتها القرب إلى ربها والزلفى لديه. وهناك شهوة تعم جميع الأنفس كلها، وهي شهوة البقاء على أتم الحالات وأكمل الغايات وكراهية الفناء والنقص عن الحال الأفضل والأكمل، وعن طريقها تظهر جميع شهوات الأنفس الأخرى، بل تظهر جميع السلوكيات والتصرفات، يقول إخوان

(٩٣) انظر: المصدر السابق، جـ١، ص: ٥٤، ٥٥ .
(٩٤) المصدر السابق، جـ١ ب، ص: ٥٥ .
(٩٥) المصدر السابق، جـ١ ب، ص: ٥١ . وانظر: ما قبلها .

الصفا: ((شهوة البقاء وكراهية الفناء أصل وقانون لجميع شهوات النفوس المركوزة في جبلتها، وإن تلك الشهوات المركوزة في جبلتها أصول وقوانين لجميع أخلاقها وسجاياها، وتلك الأخلاق أصول وقوانين لجميع أفعالها وصنائعها ومعارفها ومتصرفاتها))[٩٦].

وينبغي الإشارة إلى أن تقسيم إخوان الصفا للأنفس مأخوذ من تقسيم الفلاسفة للأنفس إلى: نفس نباتية شهوانية، ونفس حيوانية غضبية، ونفس إنسانية ناطقة، فالأولى مسئولة عن شهوة الغذاء، والثانية عن شهوة الجماع والانتقام والرياسة، والثالثة عن شهوة العلوم والمعارف والتبحر والاستكثار منها. وقد درج على هذا التقسيم الأرسطي معظم الفلاسفة؛ فذكر ابن رشد في تلخيصه لكتاب النفس أن قوى النفس المختلفة هي الغاذي والحساس والشوقي والمحرك والمفكر، وهي تتوزع على النبات والحيوان والإنسان[٩٧].

وابن سينا يقسم النفس عامة إلى ثلاثة أقسام: نباتية، وحيوانية، وإنسانية. وإذا كان للنفس النباتية ثلاث قوى، هي الغاذية، والمنمية، والمولدة. وللنفس الحيوانية قوتان، هما المحركة والمدركة– فإن للنفس الناطقة قواها أيضًا، وهي تنقسم إلى قوة عالمة، وقوة عاملة، وكل واحدة منهما تسمى عقلا [٩٨].

كما يُقَسِّم إخوان الصفا النفس الإنسانية إلى شهوانية وغضبية وعقلية، ويتبعون في ذلك ما ورد عن الفلاسفة، ويتضح هذا من خلال حديثهم عن حقيقة معنى الشياطين، حيث أشاروا إلى أنها تعني ((الأخلاق الرديئة، والطباع المذمومة المنتشئة منذ الصبا مع الإنسان بالجهالات المتراكمة، واعتقادات آراء فاسدة من غير معرفة ولا بصيرة، وما يتبعها من الأعمال السيئة والأفعال القبيحة المكتسبة بالعادات الجارية، الخارجة من الاعتدال بالزيادة والنقصان، المنسوبة إلى النفس الشهوانية والنفس الغضبية، ثم تأملت ونظرت، فوجدت الخطاب في الأمر والنهي والوعد والوعيد والمدح والذم متوجهًا كله إلى النفس الناطقة العاقلة المميزة المستبصرة، ووجدتها هي بما توصف من الأخلاق الجميلة والمعارف الحقيقة والآراء

---

(٩٦) المصدر السابق نفسه، جـ١ ب، ص: ٥٢ .

(٩٧) انظر: أبو الوليد بن رشد: تلخيص كتاب النفس، تحقيق وتعليق: الفرد . ل. عبري، مراجعة: د. محسن مهدي، تصدير: د. إبراهيم مدكور، المجلس الأعلى للثقافة- القاهرة، ١٩٩٤م، ص: ٥٧ .

(٩٨) انظر: الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق أمير علي مهنا – علي حسن فاعور، دار المعرفة ، بيروت – لبنان ، طبعة ٣، ١٩٩٣م ، جـ٢، ص: ٥٦١- ٥٦٥ ، وانظر: ابن سينا: النجاة، طبع بعناية محيي الدين صبري الكردي، مطبعة السعادة – مصر طبعة ٢، ١٩٣٨م ص:١٥٨-١٥٩-١٦٣.

الصحيحة والأعمال الزكية مَلَكًا من الملائكة بالإضافة إلى النفس الشهوانية والغضبية جميعًا. ووجدت هاتين النفسين، أعني الشهوانية والغضبية، بما توصفان من الجهالات المتراكمة، والأخلاق المذمومة، والطباع المركوزة، والأفعال القبيحة التي لهما بلا فكر ولا روية كأنهما شيطانان بالإضافة إلى النفس الناطقة))[٩٩].

ولن نتوقف هنا عند إنكارهم لحقيقة الشياطين، وتأويلهم إياها بالنفس الشهوانية والغضبية – إذ ليس هذا مقصودنا– ولكن الشاهد الذي يعنينا الآن من كلامهم هذا هو تقسيمهم النفوس إلى شهوانية وغضبية وعاقلة، ولكل نفس –أو بمعنى أدق لكل قوة من قوى النفس الثلاث – ما يتطلبها من الأخلاق والسجايا.

ويدعو إخوان الصفا إلى مجاهدة قوى النفس الغضبية والشهوية وعدم الاستسلام لهما؛ لأنهما أعداء يريدان قهر النفس الناطقة، ومن ثم فالعاقل يخالف هواه وشهوته، ويسعى في تكميل قواه العاقلة بالفضائل والأخلاق، وفي هذا يقولون: ((متى توانيت وتركت الاجتهاد في مخالفة أعدائي وعداوتهم غلبوني وظفروا بي، وأسروني وملكوني واستخدموني في أهوائهم ومراداتهم المشاكلة لأفعالهم السيئة، وصارت تلك الأشياء عادة لي وجبلة فيَّ وطبيعة ثانية، فتصير نفسي الناطقة التي هي جوهرة شريفة شيطانة مثلهم، فأكون قد هلكت وبقيت في عالم الكون والفساد مع الشياطين معذبًا ... ثم تفكرت وعرفت وتبين أني إذا قبلت وصية ربي ونصيحة نبيي، واقتديت بهما، واستعنت بربي، وشمرت واجتهدت وخالفت هوى نفسي الشهوانية، وعاديت نفسي الغضبية، وحاربت أعدائي المخالفين لنفسي الناطقة، وأمَّلت أنا أن أظفر بهم وأغلبهم بقوة ربي، وأملكهم بإذنه، وأستعبدهم بحوله وقوته، وأكون مَلِكًا عليهم وسلطانًا، ويصيرون عبيدًا لي وخدمًا وخولًا، فأصرفهم تحت أمر نفسي الناطقة ونهيها، وتكون هي عند ذلك مَلَكًا من الملائكة بإظهار أفعالها الحسنة وأعمالها الزكية وأخلاقها الجميلة وآرائها الصحيحة ومعارفها الحقيقية، وتكون هاتان النفسان الباقيتان – أعني الشهوانية والغضبية – عبدين مقهورين لها وتحت أمرها ونهيها، ويكون جميع أخلاقهما

(٩٩) إخوان الصفاء ، الرسائل ، جـ١ ب، ص: ٨٦، ٨٧ .

وسجاياهما كالجنود والأعوان والخدم والعبيد للنفس الناطقة، مسوسين بسياسة عادلة، جارية على هذا السداد، كما رسم في الشريعة الوضية أوفي الموجبات العقلية))[١٠٠].

ويتضح من النص السابق تأثر الإخوان بآراء الفلاسفة، وخاصة أفلاطون وما ذكره من تشبيه النفس وقواها المختلفة بالعربة التي يقودها قائد، ويجرها جوادان؛ كل منهما يمثل النفس الغضبية والشهوانية، بينما القائد يمثل النفس العاقلة.

خامسًا: مراتب الناس في الأخلاق:

يقسم إخوان الصفا الناس إلى أصناف وطبقات عديدة مستشهدين بقوله تعالى: ((وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا))[١٠١]. ثم يذكرون كثرة هذه الأصناف وتنوعها، وأنه لا يحصي عددها إلا الله تعالى، ولكن يجمعهم كلهم سبعة أقسام – ولا يخفى على القارئ السر في هذا التقسيم السباعي – وهذه الأقسام السبعة هي: أرباب الصنائع والحرف والأعمال، وأرباب التجارات والمعاملات والأموال، وأرباب البنايات والعمارات والأملاك، وأرباب السياسات والملوك والسلاطين، والمتصرفون والخدامون والمتعيشون يومًا بيوم، والزمنى والعطل وأهل البطالة والفراغ، وأهل العلم والدين والمستخدمون في الناموس. ((فلكل صنف منها أخلاق وسجايا وطباع ومآرب أكسبتهم إياها أعمالهم، وأوجبتها لهم متصرفاتهم، لا يشبه بعضها بعضًا، ولا يحصي عددها إلا الله))[١٠٢].

لقد جعل الإخوانُ الأخلاقَ معيارًا أساسيًّا على أساسه تم تقسيم الناس، وجاءوا بفصل حول هذا الموضوع بعنوان "مراتب الناس في الأخلاق حسب الأعمال"، وذكروا فيه أن الناموس مملكة روحانية، وأن وُجُودَه وقوامه في حَفَظَة أركانه الذين هم أتباع صاحبه وأنصاره من الأنبياء وخلفائهم والمقتدين بهم في أخلاقهم، فهؤلاء هم السعداء، وما كتب إخوان الصفا رسائلهم – كما يزعمون – إلا لِيُبَيِّنوا أخلاق خلفاء الأنبياء؛ ليقتدي بهم كل أعضاء جماعتهم في مختلف البقاع.

---

(١٠٠) المصدر السابق، جـ١ ب، ص: ٨٨ .

(١٠١) سورة نوح، الآية رقم: ١٤ . ولا تعلق للآية بتصنيف الناس، وإنما هي تتحدث عن مراحل خلق الإنسان في بطن أمه، كما قال المفسرون، يقول الطبري: ((وقد خلقكم حالاً بعد حال، طَوْرًا نطفة، وطَوْرًا علقة، وطَوْرًا مضغة)) أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م، جـ٢٣ ص: ٣٠٥ .

(١٠٢) إخوان الصفا، الرسائل، جـ١ ب ص: ٥٥ .

ومن ثم يُقسِّمون السعداءَ اتباع الأنبياء إلى ثمانية أقسام، هم: القُرَّاء، والمُحَدِّثون، والفقهاء، والمفسرون، والمجاهدون، والمحتسبون، والزهاد، والأئمة المهديون، ولكل صنف من هذه الأصناف الثمانية شروط وخصال وأخلاق. ثم يذكر الإخوان أخلاق كل صنف من هذه الثمانية[١٠٣].

الناس خواص وعوام: وكذلك يُقسِّم إخوان الصفا الناس إلى خواص وعوام، وأول الخواص عندهم العقلاء، ويتميز من هؤلاء العقلاء المؤمنون، ويتميز من المؤمنين المُقِرُّون المخلصون، ويتميز منهم العلماء والفقهاء، ويتميز منهم التائبون العابدون، ويتميز منهم الزاهدون، وهم أولياء الله وصفوة عباده وخَلْقِه، وفي ذلك يقولون: ((الخَلْق كلهم عبيد الله وأهل طاعته طوعًا أو كرهًا، ولكن منهم خاص وعام، وما بينهما طبقات متفاوتة الدرجات، فأول الخواص هم العقلاء الذين توجَّه نحوهم الخطاب بالأمر والنهي والوعد والوعيد والمدح والذم والترغيب والترهيب؛ ثم إن الله تعالى بواجب حكمته رفع قدر المؤمنين على سائر العقلاء، وهم المُقرُّون والقابلون أوامره ونواهيه، المنقادون لطاعته فيما رُسِمَ لهم في أحكام النواميس وموجبات العقول، التاركون لما نُهوا عنه سرًّا وعلانية. ثم إن الله- سبحانه- رفع من المؤمنين المقرين المخلصين العلماء الذين اجتهدوا في تعليم أوامر الناموس ونواهيه وأحكامه وحدوده وشرائطه بواجبها... ثم إن الله- جل اسمه- رفع من جملة العلماء طائفة، وهم التائبون العابدون الصالحون الورعون المتقون المحسنون بما استحقوا باجتهادهم من القيام بواجبات أحكام الناموس - درجات... ثم إن الله- جل ثناؤه- رفع من هؤلاء طائفة في الدرجات، وهم الزاهدون في الدنيا، العارفون عيوبها، الراغبون في الآخرة، المتحققون بها، الراسخون في علمها، وهم أولياء الله المخلصون، وعباده المؤمنون، وصفوته من خلقه أجمعين، الذين سمَّاهم الباري تعالى أولي الألباب، وأولي الأبصار، وأولي النهى))[١٠٤].

الناس سعداء وأشقياء: ذكر إخوان الصفا أن السعادة هي الخير المحض، وهي التي تُراد لنفسها لا لشيء آخر، والسعادة نوعان: دنيوية وأخروية، ((فالسعادة الدنيوية هي أن

(١٠٣) انظر: المصدر السابق، جـ١ ص: ٥٦ – ٦٠ .
(١٠٤) المصدر السابق، جـ١ ب، ص: ٨٠، ٨١ .

يبقى كل موجود أطول ما يمكن على أفضل حالاته وأتم غاياته. والسعادة الأخروية أن تبقى كل نفس إلى أبد الآبدين على أفضل حالاتها وأتم غاياتها))[١٠٥].

والناس سعداء وأشقياء، سواء في الدنيا أو في الآخرة؛ ومن ثم فإنهم ينقسمون في سعادة الدنيا والآخرة وشقائها إلى أربعة أقسام، هي:

١- **سعداء في الدنيا والآخرة جميعًا:** وهم الذين وفر حظهم في الدنيا من المال والمتاع والصحة، فاقتصروا منها على البلغة ورضوا بالقليل، وقنعوا به، وقدموا الفضل إلى الآخرة ذخيرة لأنفسهم.

٢- **أشقياء في الدنيا والآخرة جميعًا:** وهم الذين بخسوا حظهم من الدنيا، وشقوا في طلبها، فعاشوا فيها طول أعمارهم بأبدان متعوبة ونفوس مهمومة، ولم ينالوا خيرًا، ثم لم يأتمروا بأوامر الناموس، ولم ينقادوا لأحكامه، وتجاوزوا حدوده، فخسروا الدنيا والآخرة جميعًا.

٣- **أشقياء في الدنيا سعداء في الآخرة:** وهم الذين طالت أعمارهم في الدنيا، وكثرت مصائبهم، وكثرت همومه ، ولم يحظوا بشيء من نعيمها ولذاتها، وائتمروا بأوامر الناموس، ولم يتعدوا حدوده.

٤- **سعداء في الدنيا أشقياء في الآخرة:** وهم الذين وفر حظهم من متاع الدنيا، وارتقوا فيها، فتمتعوا وتلذذوا وتفاخروا وتكاثروا، ولم يتعظوا بزواجر الناموس، ولم ينقادوا له [١٠٦].

وقد اهتموا بذكر علامات سعداء أبناء الآخرة وأخلاقهم وأعمالهم، مشيرين إلى أن هذا ما نحتاج إليه؛ حتى نصير من هؤلاء السعداء[١٠٧].

([١٠٥]) المصدر السابق نفسه، جـ١ ب، ص:٥٣ . وانظر: ص: ٦٢.
([١٠٦]) انظر: المصدر السابق، جـ١ ب، ص: ٦٢، ٦٣ .
([١٠٧]) انظر: المصدر السابق، جـ١ ب، ص: ٦٣ .

المبحث الثالث

أسباب اختلاف الأخلاق

اكتساب الأخلاق أمر ضروري في حياة الإنسان، وهو ليس بالأمر السهل؛ لأنه يتقرر بعوامل تؤثر فيه وجودًا وعدمًا وقوةً وضعفًا، فالأخلاق عند الناس ليست على درجة واحدة، وإنما تتفاوت في وجودها وفي درجتها من شخص لآخر، ويرى إخوان الصفا أن هناك أربعة أسباب تكمن وراء اختلاف أخلاق الناس وطبائعهم، وهي:

السبب الأول: أخلاط البدن ونِسَب هذه الأخلاط.

السبب الثاني: المناخ وتربة البلاد وهواؤها.

السبب الثالث: العادة والمداومة على نوع معين من الأعمال والأفعال

السبب الرابع : أحكام الكواكب والنجوم[١٠٨].

ونقف معهم في تلك الأسباب بشيء من الإيجاز فيما يلي:

أولا: الاختلاف من جهة أخلاط البدن ونسب هذه الأخلاط[١٠٩]:

ذكر الإخوان أن الأخلاط الأربعة من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة لها دور في أمزجة الناس وأخلاقهم، فالطبائع والأخلاق تختلف من شخص لآخر بحسب هذه الأخلاط، وإذا ما اتصف شخص ما بأحد هذه الأخلاط، فإنه ينطبع بصفات وأخلاق معينة؛ فالمحروري الطباع من الناس يكونون على الأمر الأكثر شجعان القلوب، أسخياء النفوس، متهورين في الأمور المخوفة...، والمبرودين يكونون غالبًا بليدي الذهن، ثقيلي الأرواح...، والمرطوبين يكونون لييني الجانب، سمحاء النفوس، طيبي الأخلاق...، واليابسي المزاج

---

(١٠٨) انظر: المصدر السابق، جـ١ ب، ص: ٣٩، ٤٠ .

(١٠٩) الأخلاط الأربعة علم يعرف به أحوال الأبدان صحة ومرضًا، وكان التشخيص والعلاج في الطب القديم مبنيًّا على الأخلاط الأربعة، وهي نظرية لتفسير وظائف الأعضاء وأمراضها، قال بها أبقراط وجالينوس، وكان لها مكانتها في الطب القديم حتى القرن الماضي.

وخلاصتها أن الكون كله مُكوَّن من أربعة عناصر، هي: التراب، والماء، والهواء، والنار. ولكل منها صفة خاصة بها. والجسم كذلك مُكوَّن من أربعة أخلاط، هي: البلغم، والمرة الصفراء، والمرة السوداء، والدم. ويقابل الأخلاط الأربعة الأمزجة الأربعة أيضًا، وهي: الحرارة، والرطوبة، والبرودة، واليبوسة. وتقوم تلك النظرية على أن صحة البدن والسلوك السوى يقوم على التوازن بين تلك العناصر الأربعة عند الشخص السليم، أما المرض فيظهر عندما يغلب أحد هذه الأخلاط على الآخر. وظلت هذه النظرية سائدة في تفسير الطب والأمراض والسلوك البشري حتى القرن التاسع عشر.

يكونون صابرين في الأعمال، ثابتي الرأي، الغالب عليهم الصبر والحقد والبخل والإمساك والحفظ[١١٠].

وهكذا يكون ((لبنية الجسد علاقة بالأخلاق، فقد جمع الله تعالى في هيكل الإنسان أخلاطًا ومزاجات معتدلة تمامًا، ليكون بها متهيئا لقبول جميع الأخلاق الحيوانية وخواص طباعها، وليسهل عليه إظهار جميع الأفعال والصنائع العجيبة))[١١١].

فكما أن لهذه الأخلاط دورًا في صحة الجسد وسقمه؛ فأيما جسد اعتدلت فيه هذه الأربعة الأخلاط كملت صحته، واعتدلت بنيته، ((وإن زادت واحدة منهن على أخواتها وقهرتهن ومالت بهن دخل السقم على الجسد من ناحيتها بقدر ما زادت، وإذا كانت ناقصة ضعفت طاقتها عن مقاومتها، فغلبوها، ودخل السقم على الجسد من نواحيهن بقدر قلتها عنهن وضعف طاقتها عن مقاومتهن))[١١٢]. فكذلك ينتج عن امتزاج هذه الأخلاط ألوان متعددة من الأخلاق، وكما يقولون: ((ثم صيرت هذه الأخلاط التي ركبت عليها الجسد فطرًا وأصولًا عليها يبنى أخلاق بني آدم، وبها توصف، فمن التراب العزم، ومن الماء اللين، ومن الحرارة الحدة، ومن البرودة الأناة. فإن مالت به اليبوسة وأفرطت كانت عزمته قساوة وفظاظة، وإن مالت به الرطوبة كان لينه توانيًا ومهانة، وإن مالت به الحرارة كانت حدته طيشًا وسفاهة، وإن مالت به البرودة كانت أناته ريثًا وبلادة، وإذا اعتدلت وكن سواءً اعتدلت أخلاقه واستقام أمره. وكان عازمًا في أناته، لينًا في عزمه، هادئًا في لينه، متأنيًا في حدته، لا يغلبه خلق من أخلاقه، ولا تميل به طبيعة من أخلاطه عن المقدار المعتدل))[١١٣].

ومن قبل ربط أفلوطين بين الأخلاق ومزاج البدن على نحو ما فعل إخوان الصفاء، وذلك في حديثه عن ظاهرة الغضب، حيث يرى أن الاستعداد الطبيعي له ناتج عن تركيب البدن، فإذا كانت مرارة الإنسان ودمه حارين كان معرضًا للغضب، ومن كان بارد المرارة كان أقل تعرضا للغضب، يقول أفلوطين: ((لكن بادرة الغيظ تابعة للأحوال الجسمانية، إن أصحاب الدم الحار والمُرَّة اللاهية لسريعو الغضب، في حين أنه لا يكاد يظهر عند من لا مُرَّة لهم،

(١١٠) انظر: إخوان الصفاء ، الرسائل ، جـ١ ب، ص: ٤٠ .
(١١١) د . عبد اللطيف محمد العبد: الإنسان في فكر إخوان الصفا ، ص: ١٦١ .
(١١٢) إخوان الصفاء ، الرسائل ، جـ ١ ب، ص: ٤٠، ٤١ .
(١١٣) المصدر السابق، جـ١ ب، ص: ٤١ .

ويُعرفون بفتور الهمة...، ثم إن المرء ذاته هو أسرع إلى الغضب مريضًا منه صحيح البدن، وصائمًا منه مفطرًا، فإذا كان الأمر كذلك فإنه يدل على أن الغضب في ذاته وفي إبَّان انبعاثه إنما هو غضب الجسم فيما وصفناه، كما أنه يدل على أن المُرَّة أو الدم هما اللذان يحدثان تلك الحركات الخاصة))[١١٤].

كذلك نجد ابن سينا يربط بين الأخلاق ومزاج البدن، فيرى أن من استولى عليه البلغم يستولى عليه السكون والوقار والحلم، ومن الصفراء يكون الغضب، ومن السوداء سوء الخلق، وإذا كان المزاج قابلا للتعديل فإن الأخلاق قابلة للتعديل أيضًا، فكلما اعتدل المزاج تهذبت الأخلاق، وقد يخرج المزاج عن الاعتدال بأن تكون كيفيته أشد حرارة أو يبسًا مما ينبغي[١١٥].

كما يربط إخوان الصفا الأخلاق بنفس الإنسان، ويرون أن للنفس دورًا كبيرًا في تكوين الأخلاق، وهم في هذه المسألة يفرقون بين النفس والروح، فالنفس مصدر الأخلاق السيئة، والروح مصدر الأخلاق الحسنة، ((فبالنفس يسمع ابن آدم ويبصر ويشم ويذوق ويلمس ويحس ويأكل ويشرب وينام ويقعد ويضحك ويبكي ويفرح ويحزن، وبالروح يعقل ويفهم ويدري ويتعلم ويستحي ويحلم ويحذر ويتقدم ويمنع وينكر ويتكرم ويقف ويهجم، فمن النفس يكون حدته وخفته وشهوته ولعبه ولهوه وضحكه وسفهه وخداعه ومكره وعنفه وخرقه، ومن الروح يكون حلمه ووقاره وعفافه وحياؤه وبهاؤه وفهمه وتكرمه وحذقه وصدقه ورفقه وصبره))[١١٦].

وهم يجعلون أخلاق الروح علاجًا للشرور الناتجة عن النفس، وذلك بأن يقابل الخلق بضده، يقولون: ((فإذا خاف ذو اللب أن يغلب عليه خلق من أخلاق النفس، قابله بضده من أخلاق الروح، وألزمه إياه فيعدله به ويقومه، فيقابل الحدة بالحلم، والخفة بالوقار، والشهوة بالعفاف، واللعب بالحياء، واللهو بالبهاء، والضحك بالهم، والسفه بالكرم، والخداع بالشجاعة،

(١١٤) أفلوطين: تاسوعات أفوطين، نقله إلى العربية عن الأصل اليوناني: د. فريد جبر، مراجعةِ: د. جيرار جهامي ود. سميح دغيم، مكتبة لبنان ناشرون- بيروت، ١٩٩٧م، ص: ٣٥٨ .

(١١٥) انظر: ابن سينا: رسالة فى الكلام على النفس الناطقة، ضمن رسائل: أحوال النفس، تحقيق: د. أحمد فؤاد الأهواني، دار بيبليون- باريس، ١٣٧١هـ ١٩٥٢م، ص: ١٩٧ .

(١١٦) إخوان الصفاء ، الرسائل ، جـ١ ب، ص: ٤١ .

والكذب بالصدق، والعنف بالرفق، والنزق بالصبر، والخرق بالأناة، إذ كل مرض يعالج بضده))[١١٧].

ولعل في هذا الكلام تأثرًا بما ذكره الفلاسفة من كيفية التحلي بالفضيلة التي هي وسط بين رذيلتين، فإذا مال الإنسان إلى أحد الطرفين اتجه إلى الجهة المقابلة حتى يصل إلى الوسط، وذلك مثل الطبيب الذي يعالج المريض من عدم انتظام حرارته، فإن زادت عالجه بما يخفضها، وإن انخضت عالجه بما يزيدها حتى يصل إلى الاعتدال، يقول مسكويه: ((كلما وجدنا نفسنا مالت إلى أفعال جانب عودنا أفعال الجانب الآخر، ولا نزال نفعل ذلك إلى أن نبلغ الوسط أو نقاربه جدًّا))[١١٨].

كما يُقَسِّم إخوان الصفا الأخلاق والأفعال التي تصدر من الإنسان إلى أربعة، هي: طبيعية، وعقلية، وسياسية، ونفسانية، وفي ذلك يقولون: ((واعلم يا أخي- أيدك الله وإيانا بروح منه- بأن الإنسان لما كان جسده مركبًا من الأخلاط الأربعة، وكان مزاجه من الطبائع الأربع، جعل الباري- جل ثناؤه- بواجب الحكمة، أكثر أموره وتصاريف أحواله مربعات مشاكلات مطابقات بعضها لبعض، ليكون أعون له على ما يراد منه وأدل؛ من ذلك أنك تجد أخلاقه وأفعاله بعضها طبيعية مركوزة في الجبلة، كما ذكرنا طرفًا من ذلك، وبعضها عقلية فكرية، وبعضها ناموسية سياسية))[١١٩].

والواقع أنه لا يوجد تشابه بين هذا التقسيم الرباعي للأخلاق وبين تركيب جسد الإنسان من الأخلاط الأربعة، إلا إذا كان التشابه في العدد، فيكون هذا الرابط من الإخوان فيه شيء من السفاهة وعدم الانضباط.

لقد تابع الإخوان من سبقهم في محاولة فهم السلوك البشرى بربطه بطبيعة المكونات التى يتشكل منها الجسد، إلا أن نظرية الأخلاط الأربعة قاصرة؛ لأنها مجرد انطباعات عقلية نظرية، ولا تقوم على أساس علمي سليم، وتضع أنماط السلوك البشرى العديدة فى قوالب أربعة محدودة لا تكفى لفهم السلوك الانسانى فى تحولاته العديدة.

([١١٧]) المصدر السابق ، جـ١ ب، ص: ٤١ .
([١١٨]) مسكويه: السعادة، طبعة مصر، ١٩٣٨م، ص: ٥٧ .
([١١٩])إخوان الصفاء ، الرسائل ، جـ١ ب، ص:٥٣، ٥٤ .

يقول ول ديوانت في نقده لهذه النظرية: ((وفي وسعنا أن نتبين ما تلوث به الطب الأبقراطي في منشئه من عدوى الفلسفة بالنظر إلى عقيدة "الأخلاط" المشهورة. يقول أبقراط: إن البدن يتكون من الدم، والبلغم، والصفراء، والصفراء السوداء، وإن الإنسان يستمتع بالصحة الكاملة إذا امتزجت فيه هذه الأركان (العناصر) بنسبها الصحيحة، وإن الألم ينشأ من نقص بعض هذه "الأخلاط" أو زيادتها أو انفصالها عن الأخلاط الأخرى. وقد بقيت هذه النظرية وعاشت بعد زوال جميع الفروض الطبية القديمة، ولم يتخل عنها الناس إلا في القرن الماضي))[١٢٠].

ثانيًا: اختلاف الأخلاق بسبب المناخ وتربة البلاد وهوائها.

عقد إخوان الصفا فصلا بعنوان :" تأثير طبيعة البلدان في الأخلاق"، وفيه أشاروا إلى اختلاف الأخلاق والطباع بحسب اختلاف البلاد والمدن والقرى في تربتها وهوائها، وكذلك بحسب موقع البلد في ناحية الجنوب أو الشمال أو الشرق أو الغرب، وبحسب وجودها على رءوس الجبال، أوفي بطون الأودية والأغوار، أو على سواحل البحار وشطوط الأنهار، أو في البراري والقفار، وبحسب كون الأرض رملة التربة أو سباخًا، صخرية أو سهلة، وبحسب هبوب الرياح والهواء، ((وهذه كلها تؤدي إلى اختلاف أمزجة الأخلاط؛ واختلاف أمزجة الأخلاط يؤدي إلى اختلاف أخلاق أهلها وطباعهم وألوانهم ولغتهم وغذائهم وآرائهم ومذاهبهم وأعمالهم وصنائعهم وتدابيرهم وسياساتهم، لا يشبه بعضها بعضًا، بل تنفرد كل أمة منها بأشياء من هذه التي تقدم ذكرها، لا يشاركها فيها غيرها))[١٢١].

ويضربون لذلك مثلا بالذين يولدون في البلاد الحارة، ويتربون هناك، وينشئون على ذلك الهواء، فإن الغالب على باطن أمزجة أبدانهم البرودة؛ لأن الحرارة والبرودة هما ضدان لا يجتمعان في حال واحدة، في موضع واحد، ولكن إذا ظهر أحدهما استبطن الآخر؛ ليكونا موجودين في دائم الأوقات، فإنه لما كانت الحرارة هي الغالبة على أهوية البلدان الجنوبية من

([١٢٠]) جيمس ديورَانت: قصة الحضارة، تقديم: د. محيي الدّين صَابر، ترجمة: د. زكي نجيب محمُود وآخرين، دار الجيل، بيروت - لبنان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م، جـ٧ ص: ١٨٨.

([١٢١])إخوان الصفاء ، الرسائل ، جـ١ ب، ص: ٤٢.

الحبشة والزنج والنوبة وأهل السند وأهل الهند فمزاج أهل هذه البلدان يغلب عليها البرودة، وظهرت عليهم الأخلاق والأمزجة الناشئة عن البرودة .

وكذلك أيضًا الذين يولدون في البلدان الباردة، ويتربون هناك، وينشئون على ذلك الهواء، يكون الغالب على باطن أمزجة أبدانهم الحرارة، وكثرت الشجاعة والفروسية فيهم، ويخلص إخوان الصفا إلى النتيجة التالية: ((وعلى هذا القياس توجد صفات أهل البلدان المتضادة بالطباع والأهوية، يكونون مختلفين في الطباع والأخلاق في أكثر الأمر وأعم الحالات))[١٢٢].

ثالثًا: اختلاف الأخلاق بسبب العادة والمداومة على نوع معين من الأعمال والأفعال:

الأخلاق مثل الصنائع يكتسبها الإنسان، وتصير له عادة مع الاستمرار فيها والدوام عليها، فإذا ما داوم المرء على عادة معينة أو سلوك ما، فإنه بهذه المداومة تصير تلك العادة خُلُقًا لازمًا له، يقول إخوان الصفا: ((واعلم بأن العادات الجارية والمداومة فيها تقوي الأخلاق المشاكلة لها، كما أن النظر في العلوم والمداومة على البحث عنها والدرس لها والمذاكرة فيها يقوي الحذق بها والرسوخ فيها، وهكذا المداومة على استعمال الصنائع والدءوب فيها يقوي الحذق فيها والأستاذية فيها، وهكذا جميع الأخلاق والسجايا))[١٢٣].

ويطلق الإخوان على هذا السبب " جهة نشوئهم على ديانات آبائهم ومعلميهم وأستاذيهم ومن يربيهم ويؤدبهم"

وفي كلامهم هذا إشارة إلى أن الأخلاق تكتسب من البيئة الاجتماعية، وتقوى بالمداومة عليها، وتتضح أهمية هذا الأمر في تهذيب الصبيان وتأديبهم، لأن الطفل يولد ولديه استعداد لتقبل الأخلاق المختلفة. فإذا أدرك الوالدان قبول أولادهما للتأثر في الصغر أكثر من أي مرحلة أخرى، واستعدادهما لاكتساب الفضائل والرذائل عملا على حسن التربية والتهذيب، ومن ثم فإنه من الواجب على الوالدين اتباعهما لأساليب التنشئة الخلقية السليمة لأبنائهما وتهذيب نفوسهم منذ الصغر، ليشبوا على قيم وسلوكيات سليمة.

(١٢٢) المصدر السابق، جـ١ ب، ص:٤٣. وانظر: ما قبلها.
(١٢٣) المصدر السابق، جـ١ ب، ص: ٤٥ .

وكذلك فإن أكثر الانحراف الأخلاقي والسلوكي عند أولادنا يرجع إلى سوء التربية وإهمال التأديب لهم من الصغر، ومن ثم فالوالدان والمجتمع المحيط بالطفل مسئول عن توجيه أخلاقه وتطبيع سلوكه، بل ((إن معظم الرذائل التي يرتكبها المرء إنما كانت نتيجة تربية فاسدة ساهمت في فسادها الأسرة، والظروف الثقافية والاقتصادية، كما لعب فيها الأستاذ أو الشيخ دورًا رئيسيًّا))[١٢٤].

لقد كان لإخوان الصفا آراء جيدة في التربية وتأديب النشء والأولاد، فجاء في رسائلهم الدعوة إلى الاهتمام بتربية الصبيان منذ الصغر، والتدقيق في اختيار من يرافقهم ويصاحبهم؛ لما لذلك من أثر على أخلاقهم وطباعهم.

وفي هذا يقولون: ((والمثال في ذلك أن كثيرًا من الصبيان إذا نشئوا مع الشجعان والفرسان وأصحاب السلاح، وتربوا معهم تطبعوا بأخلاقهم، وصاروا مثلهم. وهكذا أيضًا كثير من الصبيان إذا نشئوا مع النساء والمخانيث والمعيوبين، وتربوا معهم تطبعوا بأخلاقهم، وصاروا مثلهم، إن لم يكن في كل الخلق ففي بعض. وعلى هذا القياس يجري حكم سائر الأخلاق والسجايا التي يتطبع عليها الصبيان منذ الصغر، إما بأخلاق الآباء والأمهات والأخوة والأخوات والأتراب والأصدقاء والمعلمين والأستاذين المخالطين لهم في تصاريف أحوالهم))[١٢٥].

وهذا يدل على أن إخوان الصفا يرون الفطرة الإنسانية قابلة لكل شيء، وأن الخير يُكْتسب بالتربية، والشر يكتسب بالتربية، وليس للإنسان بفطرته ميل ثابت لا إلى الشر ولا إلى الخير، وإنما يسعد أو يشقى بما يقدم إليه أبواه ومعلموه.

كما يفهم أيضًا من كلام إخوان الصفا في تأديب الصبيان إشارة إلى أهمية اختيار رفقائهم وحثٌّ للآباء أن يبعدوا رفقاء السوء عن أبنائهم؛ لأن الطباع تتأثر بالصحبة والرفقة، وفى الحديث الشريف ((الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل))[١٢٦].

([١٢٤]) د فيصل بدير عون : دراسات فى الفلسفة الخلقية، د.تاريخ ومكان النشر ، ص: ٢٤٧ .
([١٢٥])إخوان الصفاء ، الرسائل ، جـ١ ب، ص: ٤٥ .
([١٢٦]) رواه الترمذى فى صحيحه الجامع جـ٤ ص: ٥٨٩ وقال حسن صحيح .

وهكذا يتضح أثر التربية والبيئة الاجتماعية والدينية في خُلُق الإنسان، فإذا نشأ الولد مع الشجعان والفرسان تطبع بعاداتهم، أما إذا نشأ مع جماعة من ضعفاء الإرادة أصحاب السئيات فلا يلبث أن يسير على خطاهم، ويفعل فعلهم. فالآباء والأمهات والإخوة والأتراب والأصدقاء والمعلمون وأصحاب الأديان يكيفون شخصية الإنسان ويطبعونها بطابعهم الخاص[١٢٧].

ومن ثم يجب تربية الأبناء على الفضيلة والتقوى وإبعادهم عن مخالطة الأشرار وما يتبعه من رذائل أخلاقية.

ومن الفلاسفة المسلمين الذين اهتموا – أيضًا– بتأديب الأولاد وتربية الصبيان ابن سينا حيث دعا إلى مراعاة أخلاق الطفل وإبعاده عن المؤثرات الضارة على سلوكه وأخلاقه، وكان يرى أن الإنسان يكتسب الخير أو الشر من البيئة التي حوله، ولذا أوضح أن عملية اكتساب الخلق تبدأ من السنوات الأولى في حياة الطفل، كما دعا إلى الاهتمام بالتعلم منذ السادسة[١٢٨].

وقد أشار الغزالي ومسكويه إلى ما أشار إليه إخوان الصفا؛ ذلك أن الغزالى قد تحدث بالتفصيل عن رياضة الصبيان، ومما قاله في ذلك: ((والصبي أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما نقش، ومائل إلى كل ما يمال به إليه، فإن عُوِّدَ الخير وعلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة، وشاركه في ثوابه أبوه وكل معلم له ومؤدب؛ وإن عُوِّدَ الشر وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك، وكان الوِزْر في رقبة القَيِّم عليه والوالي له. وقد قال الله عز وجل ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا))[١٢٩]. ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا، فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى؛ وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق، ويحفظه من القرناء السوء، ولا

(١٢٧) د. جبور عبد النور: إخوان الصفا، ص: ٥٠ .
(١٢٨) انظر: د عبد الرحمن النقيب: فلسفة التربية عند ابن سينا (رسالة دكتوراة)، تقديم: د٠ سعيد إسماعيل على، سلسلة المكتبة العربية للدراسات التربوية (٥)، مجموعة أعلام الفكر التربوى العربى والإسلامى (١) دار الثقافة للطباعة والنشر- القاهرة، ١٩٨٤م ، ص: ١٠٥ – ١٠٨.
(١٢٩) سورة التحريم، الآية رقم: ٦ .

يعوده التنعم، ولا يحبب إليه الزينة والرفاهية، فيضيع عمره في طلبها إذا كبر، فيهلك هلاك الأبد، بل ينبغي أن يراقبه من أول أمره...))[١٣٠].

وكان مسكويه يرى أن نفس الطفل ساذجة قابلة لكل ما يراد بها، ولهذا يجب حفظه من قرناء السوء وحياطته بكل ضروب التربية الطيبة، فيقول: ((نفس الصبي ساذجة لم تنتقش بعد بصورة، وليس لها رأي ولا عزيمة تميلها من شيء إلى شيء، فإذا نقشت بصورة، وقبلتها نشأ عليها، واعتادها))[١٣١].

وفي هذا أيضًا يقول ابن الجوزي: ((وأما تدبير الأولاد فحفظهم من مخالطة تفسد مستقبلهم، ومتى كان الصبي ذا أنفة حييًا رجي خيره، ولْيُحْمَل على صحبة الأشراف والعلماء، وليحذر من مصاحبته للجهال والسفهاء، فإن الطبع لص، وليحذر الصبي من الكذب غاية التحذير، ومن المخالطة للصبيان المعوجين، وليوصه بزيادة البر للوالدين، وليحفظ من مخالطة النساء))[١٣٢].

وإذا كان الإخوان يرون أن الأخلاق تختلف تبعًا لرفقاء الإنسان والبيئة التي يولد فيها، فإنهم كذلك يرون أن الأخلاق تختلف تبعًا لمعتقدات الناس وديانـاتهم، وينظرون على أن العلاقة بين الأخلاق والاعتقاد علاقة مرتبطة، فهناك أخلاق ينتج عنها اعتقاد المرء، وهناك أخلاق نابعة من الاعتقاد وترجمة له، وكما يقولون: ((مِن الناس مَنْ يكون اعتقاده تابعًا لأخلاقه، ومنهم من تكون أخلاقه تابعة لاعتقاده))، وعن النوع الأول يقول إخوان الصفا: ((مَنْ يكون مطبوعًا على طبيعة مريخية فإنه تميل نفسه إلى الآراء والمذاهب التي يكون فيها التعصب والجدال والخصومات أكثر، وهكذا أيضًا من يكون مطبوعًا على طبيعة مشترية، فإنه تكون نفسه مائلة إلى الآراء والمذاهب التي يكون فيها الزهد والورع واللين أكثر. وعلى هذا القياس توجد آراء الناس ومذاهبهم تابعة لأخلاقهم))[١٣٣].

(١٣٠) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، دار المنهاج – السعودية ٢٠١١ ، جـ٥ ص: ٢٥٤ .
(١٣١) مسكويه: تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ، ص: ٦٧ .
(١٣٢) ابن الجوزي: صيد الخاطر، تحقيق: د. عبد الرحمن البر، دار اليقين- المنصورة، ١٤١٣هـ ١٩٩٣م، ص: ٣٢٩، ٣٣٠ .
(١٣٣)إخوان الصفاء ، الرسائل ، جـ١ ب، ص: ٤٥ .

أما من تكون أخلاقهم نابعة من معتقداتهم، وعلى هذا يكون الجزاء والمسئولية، فيقول الإخوان: ((وأما الذي تكون أخلاقه تابعة لاعتقاده فهو الذي إذا اعتقد رأيًا أو ذهب مذهبًا وتصوره وتحقق به صارت أخلاقه وسجاياه مشاكلة لمذهبه واعتقاده، لأنه يصرف أكثر همه وعنايته إلى نصرة مذهبه، وتحقيق اعتقاده في جميع متصرفاته، فيصير ذلك خُلُقًا له وسجية وعادة يصعب إقلاعه عنها وتركه لها. وعلى هذا الجنس من الأخلاق تقع المجازاة من المدح والذم والثواب والعقاب والوعد والوعيد والترغيب والترهيب، لأنه اكتساب من صاحبه وفعل له))[١٣٤].

وفي محاولة من إخوان الصفا لتأكيد صلة الأخلاق بالاعتقاد يضربون مثلا برجلين اصطحبا، أحدهما مجوسي، والآخر يهودي، وكل منهما كانت أخلاقياته وسلوكه وفقًا لما يعتقده، ومن هذا المثل يصل الإخوان إلى تلك الحقيقة التي يقررونها على لسان الرجلين، وهي قولهما: ((اعتقاد قد نشأت عليه، ومذهب قد ألفته، وصار عادة وجبلة بطول الدرب فيه، وكثرة الاستعمال له، اقتداء بالآباء والأمهات والأستاذين والمعلمين من أهل ديني ومذهبي، فقد صار جبلة وطبيعة ثابتة يصعب تركها والإقلاع عنها))[١٣٥].

ولا شك في أن الأخلاق الظاهرة والسلوكيات والعادات المختلفة تكون – غالبًا – ترجمة لمعتقدات الإنسان الداخلية، فللعقيدة أثر كبير في الأخلاق والعادات، خاصة إذا ما كانت العقيدة أساسها الإيمان بوجود إله خالق للكون إليه المرجع والمصير، حيث يثاب فيه الناس ويعاقبون وفق عدله سبحانه ((هذا الاعتقاد له آثاره في الالتزام؛ حيث ينظر إلى الأخلاق على أنها جزء من التشريع ثابت وواجب أن يلتزم به، ولا يختلف على هذا الأثر عاقلان؛ لأن الإيمان بتنزيه جهة الأمر عن الخطأ يجعل المتخلق غير معترض ولا قلق وهو ينفذ الأمر ويحرص عليه))[١٣٦].

([١٣٤]) المصدر السابق، جـ١ ب، ص: ٤٥، ٤٦ .

([١٣٥]) انظر: المصدر السابق، جـ١، ص: ٢٩٧. وانظر ما قبلها. " وهذه الحكاية تنفعنا من جهات شتى فهي تنبئنا بأمر واحد عن أفكار إخوان الصفا وروح تفكيرهم الأخلاقي . فثمة حكايات رمزية كثيرة كتبت بأسلوب شرقي محض تجدها منتثرة في الرسائل". انظر: د. عادل العوا: حقيقة إخوان الصفا، الأهالي للطباعة والنشر- دمشق، ١٩٩٣، ص: ١٩٩ .

([١٣٦]) د أبو اليزيد العجمى: الأخلاق بين العقل والنقل، دار الثقافة العربية- القاهرة، ١٤٠٩هـ ١٩٨٨م ، ص: ١٩٨، ١٩٩ .

ومن ثم يكون هذا الاعتقاد أو الإيمان هو أصل الفضائل الاجتماعية والإنسانية والأخلاقية جميعًا، وبدونه يصبح الإنسان – غالبًا – حيوانًا تحكمه الشهوة ولا يرده ضمير، وكما يقول أحد الباحثين: ((إن حضور الله الكلى الشامل في كل زمان ومكان يجعل المسلم دومًا يسعى إلى تكييف سلوكه مع معتقداته، وفى ذلك التحام الرؤية الميتافيزيقية بالحياة المجتمعية والأخلاقية داخل نظرة تتمحور حول ((الله))، فليس هناك أي سبيل للخداع أو التزييف ما دام الضمير يبقى يقظًا حذرًا؛ لأن الله دائمًا معنا ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ ﴾[١٣٧])...)[١٣٨].

رابعًا: اختلاف الأخلاق بسبب أحكام الكواكب والنجوم:

يربط إخوان الصفا بين ميلاد الإنسان وبين تأثير الأبراج في أخلاط البدن، وما يتبع ذلك من الأمزجة والعادات، ويرون ارتباط الأخلاق بالكواكب والأفلاك، ويذهبون إلى اختلاف الأخلاق من شخص لآخر بحسب اختلاف مولدهم والأبراج المؤثرة في أخلاطهم، ويرون أن هذا الوجه من أوجه اختلاف الأخلاق هو الأصل، وباقي الأوجه فروع عليه، وفي هذا يقولون: ((الذين يولدون بالبروج النارية في الأوقات التي يكون المستولي عليها الكواكب النارية مثل المريخ وقلب الأسد وما شاكلهما من الكواكب، فإن الغالب على أمزجة أبدانهم الحرارة وقوة الصفراء؛ والذين يولدون بالبروج المائية في الأوقات التي يكون المستولي عليها الكواكب المائية مثل الزهرة والشعرى اليمانية، فإن الغالب على أمزجة أبدانهم يكون الرطوبة والبلغم، وهكذا الذين يولدون بالبروج الترابية في الأوقات التي يكون المستولي عليها زحل وما شاكله من الكواكب الثابتة، فإن الغالب على أمزجة أبدانهم اليبوسة والمرة السوداء؛ وهكذا الذين يولدون بالبروج الهوائية في الأوقات التي يكون المستولي عليها المشتري وما شاكله من الكواكب الثابتة، فإن الغالب على أمزجة أبدانهم الدم والاعتدال))[١٣٩].

وهكذا يربط إخوان الصفا مسألة الأخلاق بقوى روحانيات الكواكب والأفلاك، لأنها هي قوى النفس الكلية، ولا يعدو ذلك أن يكون رمزًا إلى الأئمة والدعاة أيضًا، فهم يرون أن الله

([١٣٧]) سورة الحديد، الآية : ٤ .
([١٣٨]) د. محمد عزيز الحبابى: الشخصانية الإسلامية، دار المعارف- القاهرة، ١٩٨٣م، ص: ٣٧ .
([١٣٩])إخوان الصفاء ، الرسائل ، جـ١ ب، ص: ٤٣، ٤٤ .

سبحانه وتعالى قد أيَّد نفس الإنسان بقوى روحانيات سائر الكواكب في الفلك ليكون متهيئًا له بها قبول جميع الأخلاق(١٤٠).

وينبغي الإشارة إلى أنه في تعاليم إخوان الصفا رواسب من وثنيات قديمة مختلفة، وإن لم تكن صافية كل الصفاء، ومع محاولتهم لإخفاء بعضها فيبدو منها إشارات وتصريحات كثيرة، والقول بتأثير الكواكب والنجوم، وجعلها أحد الأسباب المؤثرة في أخلاق الناس إحدى هذه الرواسب الوثنية، وهذا مما يتعارض مع عقيدة الإسلام، ويتنافى مع العقل والفطرة.

ويشير أحد الباحثين إلى أن قيام الإخوان بالتقرب من الكواكب يفترض أمرين ينكرهما الإسلام:

أولهما: الاعتقاد بأن هذه العوالم السابحة في الفضاء تتصف بالألوهية – أو بما يشبه الألوهية – وفي ذلك إنكار للتوحيد الإسلامي الذي يأبى مثل هذه الوثنية الصريحة.

ثانيهما: أنهم يتقربون منها لإقصاء ضررها، واستدرار خيراتها، ولقد نهى الإسلام نهيًا قاطعًا عن التنجيم على أنه تنبؤ بما تحمل الأيام المقبلة في طياتها، فكيف به إذ هدف إلى تعديل سير الزمن والأحداث(١٤١).

(١٤٠) د . عبد اللطيف محمد العبد: الإنسان في فكر إخوان الصفا ، ص:٨٦ .
(١٤١) د. جبور عبد النور: إخوان الصفا ، ص: ٣٢ .

المبحث الرابع

الفضائل والرذائل عند إخوان الصفا

أولا: اكتساب الفضائل :

الأخلاق المكتسبة منها ما هي محمودة منسوبة إلى الملائكة، ومنها ما هي مذمومة منسوبة إلى الشيطان، ويدعو إخوان الصفا إخوانهم الكرام إلى اجتناب أخلاق الشياطين وتركها، والتخلق بأخلاق الملائكة الكرام والاجتهاد في اكتسابها، ذاكرين أن أخلاق النفوس هي أحد أربعة أشياء لا تفارق النفس بعد مفارقتها الجسد، وعليها أيضًا تُجَازَى النفوس، وهي: الأخلاق المكتسبة المعتادة، والعلوم التعليمية، والآراء المعتقدة، والأعمال المكتسبة بالاختيار والإرادة(١٤٢).

وفي حديث الإخوان عن الفضائل فرَّقوا بين أخلاق أبناء الدنيا وطباعهم، وأخلاق أبناء الآخرة وسجاياهم، فأخلاق أبناء الدنيا هي التي ركَّزتها الطبيعة في الجبلة من غير كسب منهم ولا اختيار ولا فكر ولا روية ولا اجتهاد ولا كلفة، فهم يسعون فيها، ويعملون بموجبها مثل البهائم في طلب منافع الأجساد ودفع المضرة عنها. وأما أخلاق أبناء الآخرة فهي التي اكتسبوها باجتهادهم، إما بموجب العقل والفكر والروية، وإما باتباع أوامر الناموس وتأديبه، وتصير عند ذلك عادة لهم بكثرة الاستعمال لها، وعليها يجازون ويثابون(١٤٣).

ويؤكد الإخوان على أن أكثر الفضائل التي جاء بها الشرع هي بخلاف ما في طباع الناس، وبخلاف ما في الجبلة من حب الشهوات أو طلب الراحة والنعيم والتلذذ. ومن ثَمَّ يدعون إلى عدم الركون إلى ما جُبِلَ عليه الإنسان من خلق، بل عليه أن يحاول تغيير أخلاقه. وأن كان التخلق بأخلاق الدين ليس أمرًا سهلا – لأن أوامر الدين ونواهيه بخلاف ما ركز في جبله الإنسان من شهوات وراحة، فقد أمر الدين بطهارة مثلا عند البرد وبالصوم مع شدة الجوع والعطش – فإنه لا يصح أن يستسلم الإنسان لما في طبعه وغريزته من أخلاق، بل عليه أن يتحرك ويدفعها عن نفسه، حتى يترقى الإنسان من عالمه إلى العالم

(١٤٢)إخوان الصفاء ، الرسائل ، جـ١ ب، ص: ٧٦ .
(١٤٣) انظر: المصدر السابق، جـ١ ب، ص: ٦٣ .

العلوي،: ((ينبغي لنا أن نتحرك ونجتهد، حتى ندفع عن أنفسنا الأخلاق الطبيعية المركوزة في الجبلة المذمومة منها، المانعة للنفوس عن النهوض والخروج من عالم الكون والفساد إلى عالم الأفلاك، وسعة السماوات، ومعدن الأرواح، ومقر النفوس))[١٤٤].

ويستشهد الإخوان على أمهات الفضائل بقوله تعالى: ((خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ))[١٤٥]. ويرون أن مكارم الأخلاق مجموعة في هذه الآية، وعددها سبعة، وهي: عفوك عمن ظلمك، وإعطاؤك من حرمك، وصلتك لمن قطعك، وإحسانك إلى من أساء إليك، ونصيحتك لمن غشك، واستغفارك لمن اغتابك، وحلمك عمن أغضبك. ولاكتساب هذه الأخلاق يقولون: ((انظر الآن يا أخي– أيدك الله وإيانا بروح منه– إلى ما ذكرناه من أخلاق الكرام، وتفكر فيها إن كنت تريد أن تكون من أولياء الله وأهل جنته، ومن حزب ملائكته الكرام البررة؛ فاقتد بهم وتخلق بأخلاقهم باجتهاد منك وروية، وعناية شديدة، وكثرة استعمال لها، وطول الدربة بها، لتصير لك عادة وطبيعة وجبلة مركوزة))[١٤٦].

ثانيًا: أهم الفضائل عند إخوان الصفا :

ركَّز إخوان الصفا على نماذج عملية من الفضائل، كالمحاسبة، والعلم، والزهد، والتوبة، وذكروها في رسالتهم عن الأخلاق، ونتوقف معهم عند خصلتين من هذه الفضائل، هما: العلم والزهد فيما يلي:

١ – **العلم:** اهتم إخوان الصفا بالحديث عن العلم لأن رتبته من أسمى الأخلاق لديهم، فالعلم إمام العمل، والعمل تابعه، ويلهمه الله السعداء، ويحرمه الأشقياء، وليس من فريضة بعد الإيمان بالله تعالى والإقرار به والتصديق لأنبيائه ورسله أفضل ولا أجل ولا أشرف ولا أنفع لعبد ولا أقرب له إلى ربه من العلم وطلبه وتعليمه[١٤٧].

وللعلم غاية هي طلب الآخرة، وفي ذلك يقول الإخوان: ((واعلم – يا أخي – بأن كل علم وأدب لا يؤدي صاحبه إلى طلب الآخرة، ولا يعينه على الوصول إليها فهو وبال على صاحبه وحجة عليه يوم القيامة، وذلك أن الملوك الجبابرة والفراعنة والقرون الماضية كانت

(١٤٤) المصدر السابق نفسه ، جـ١ ب، ص: ٦٤. وانظر: ص: ٧١ .
(١٤٥) سورة الأعراف، الآية رقم: ١٩٩.
(١٤٦)إخوان الصفاء ، الرسائل ، جـ١ ب، ص: ٦٤ .
(١٤٧) انظر: المصدر السابق، جـ١، ص: ٧٣.

لهم عقول رضية وآداب بارعة وسياسة وحكمة وصنائع عجيبة، وهكذا من كان يعاشرهم وينادمهم ويقرب إليهم من وزرائهم وكتابهم وعمالهم وقوادهم وعلمائهم وأدبائهم، ولكن هلكوا من أجل إنهم صرفوا تلك القوى والعقول والأفهام وأكثر أفكارهم وتمييزهم ورويتهم في طلب شهوات الدنيا والتمتع بلذاتها ونعيمها، بالرغبة الشديدة والحرص والتمني للخلود فيها، وجعلوا أكثر كدهم وسعيهم في صلاح أمور الدنيا، حتى عمروها وأهملوا الآخرة وذكر المعاد، ولم يستعدوا له، وذكروا الدنيا وغفلوا عن الآخرة ولم يتزودوا من الدنيا، وتركوها لغيرهم، ورحلوا عنها كارهين، فصارت تلك النعم وبالًا عليهم، إذ لم ينالوا بها الآخرة، فخسروا الدنيا والآخرة))[١٤٨].

ويرشد إخوانُ الصفا طالبَ العلم إلى سبع خصال هي أشبه ما تكون بآداب ينبغي أن يتحلى بها الطلاب، وأولها السؤال والصمت، ثم الاستماع، ثم التفكر، ثم العمل به، ثم طلب الصدق من نفسه، ثم كثرة الذكر أنه من نعم الله، ثم ترك الإعجاب بما يحسنه.

ويرون أن العلم يُكْسِب صاحبَه عشرَ خصال محمودة، أولها الشرف وإن كان دَنِيًّا، والعز وإن كان مهينًا، والغنى وإن كان فقيرًا، والقوة وإن كان ضعيفًا، والنبل وإن كان حقيرًا، والقرب وإن كان بعيدًا، والقَدْر وإن كان ناقصًا، والجُود وإن كان بخيلًا، والحياء وإن كان صلفًا، والمهابة وإن كان وضيعًا، والسلامة وإن كان سقيمًا[١٤٩].

ويُحَذِّر إخوان الصفا طالب العلم من آفات تقع له في الطريق، ويطلبون منه الحذر منا والابتعاد عنها، فلا يغتر الطلاب بكثرة فضائل العلم فإن بعض العلماء لا يخلون من أخلاق رديئة تحتاج أن تُتجنب، فمنها الكبر والعجب والافتخار، ومنها كثرة الخلاف والمنازعة فيه، وطلب الرياسة به، والتعصب والعداوة والبغضاء فيما بينهم، ومنها الخوض في المشكلات، والترخيص في الشبهات، وترك العمل بموجبات العلم، ومنها كثرة الرغبة في الدنيا وشدة الحرص في طلبها، فإن ذلك مرض للنفوس وسقام لها، ((وعلماء أحكام الناموس أطباء

(١٤٨) المصدر السابق، جـ ١ ب، ص: ٧٥ .
(١٤٩) المصدر السابق، جـ١ ب، ص: ٧٤ .

النفوس ومداووها، فمثل العالم الراغب في الدنيا، الحريص على طلب شهواتها، كمثل الطبيب المداوي غيره وهو مريض لا يرجى صلاحه، فكيف يشفي المريض بعلاجه؟!))[١٥٠].

٢- **الزهد:** تكلَّم الإخوان عن الزهد، وهم يرون أنه أساس كل خير، ويُعَرِّفونه بأنه ((ترك فضول متاع الحياة الدنيا، وترك طلب شهواتها، والرضا بالقليل، والقناعة باليسير من الذي لا بد منه))[١٥١].

فأصل كل فضيلة هو الزهد في الدنيا وقلة الرغبة في شهواتها ونعيمها ولذاتها، والرغبة في الآخرة، وكثرة ذكر المعاد في آناء الليل وأطراف النهار، والاستعداد للرحلة إليها. وعلى العكس من ذلك الحرص، فهو أكثر الشرور التي تجري بين الناس بسبب شدة الرغبة في الدنيا، والحرص على طلب شهواتها ولذاتها ورياستها، وتمني الخلود فيها[١٥٢].

وإذا كان الإخوان يرون أن الإيمان أفضل خصال الخير وأولها؛ لأنه يجمع فضائل كثيرة، فإن الزهد هو أفضل الخصال بعد الإيمان، وفي هذا يقولون: ((للمؤمنين فضائل كثيرة من محاسن الأخلاق ومكارم الأفعال وفضائل الأعمال وجميل الفعال؛ لا يمكن أن تجمع كلها في شخص واحد، بل في عدة أشخاص، فمُقِلٌّ ومُكْثِر، ولكن ليس بعد العلم والإيمان خصلة للمؤمنين، ولا خلق من أخلاق الكرام أشرف ولا أجل ولا أفضل من الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة))[١٥٣].

وهذا الزهد فضيلة أساسية يتفرع منها فضائل وخصال عديدة، يوضحها الإخوان بقولهم: ((وهذه خصلة تتبعها خصال كثيرة من محاسن الأخلاق وفضائل الأعمال وجميل الأفعال))[١٥٤].

وعلى الزاهد قلة الأكل وترك الشهوات، لما ينتج عنهما من خصال حميدة، ومناقب حسنة جميلة، ((منها أن الإنسان يكون أصح جسمًا، وأجود حفظًا، وأزكى فهمًا، وأجلى قلبًا، وأقل نومًا، وأصدق رؤيا، وأخف نفسًا، وأحد بصرًا، وألطف فكرًا، وأصغى سمعًا، وأصح حسًا،

---

(١٥٠) المصدر السابق، جـ١ ب، ص: ٧٥ .
(١٥١)المصدر السابق، جـ١ ب، ص: ٨١.
(١٥٢)المصدر السابق، جـ١ ب، ص: ٨١ .
(١٥٣)المصدر السابق، جـ١ ب، ص: ٨١ .
(١٥٤)المصدر السابق، جـ١ ب، ص: ٨١ .

وأثبت رأيًا، وأقبل للعلم، وأسرع حركة، وأسلم طبيعة، وأقل مؤنة، وأوسع مواساة، وأكرم خلقًا، وأثبت صحبة، وأحلى في القلوب. وقلة الأكل إذا ساعدته القناعة كان مزرعة الفكر، وينبوع الحكمة، وحياة الفطنة، ومصباح القلب، وطبيب البدن، وقاتل الشهوات، وهادم الوسواس، ومنزل الإلهام، وعصمة من شر النفس، وأمانًا من شدة الحساب؛ والشكر له تابع، وكفر النعمة عنه زائل))[١٥٥].

وهم يدعون إلى التقلل من الطعام، وذلك لأن ((القوم إذا شبعت بطونهم، سمنت أبدانهم، وقست قلوبهم، وجمحت نفوسهم، واشتدت شهواتهم))[١٥٦].

ومن الفضائل التي تتفرع من الزهد، ويتصف بها الزهاد العفة، والحلم والأناة والتثبت والرزانة والتؤدة والرفق والمداراة والسكينة والوقار والحياء والصفح والعفو والتغافل والشفقة والرحمة والعدل والنصفة والمحبة والقبول والإجابة والتواضع والاحتمال، والرضا والقناعة والتجمل والكفاف واليأس من الطمع والراحة من العناء والتسليم للقضاء والصبر في الشدائد والبلوى وحسن العزاء. ومن خصالهم وشعارهم التوكل على الله والثقة به والطمأنينة إليه والإخلاص له في العمل والدعاء والصدق بالقول والتصديق في الضمير والنصح للإخوان والوفاء بالعهد والحزم والعزم في عمل الخير والإحسان والبر والمعروف، والمسارعة في الخيرات رَغَبًا ورَهَبًا [١٥٧].

وقد ختم إخوان الصفا رسالتهم بدعوة إلى الزهد في الدنيا، وقد استندوا في الترغيب في الزهد إلى قصص وأحاديث موضوعة وحكايات عن بني إسرائيل وعيسى وموسى لا يصح منها شيء، ثم ذكروا أن الذين تحلوا بهذه الخصال هم أولياء الله تعالى وخالص عباده، الذين يحبون الله ويحبهم، ومن ثم يدعون إلى الاقتداء بأخلاقهم قائلين بعد ذكر صفاتهم: ((فهل لك يا أخي– أيدك الله وإيانا بروح منه– بأن ترغب في صحبتهم، وتقصد مناهجهم، وتقفو أثرهم، وتتخلق بأخلاقهم، وتسير بسيرتهم، لعلك تفوز بمفازتهم))[١٥٨].

([١٥٥])المصدر السابق، جـ١ ب، ص: ٨١ .
([١٥٦])المصدر السابق، جـ١ ب، ص: ٨١ .
([١٥٧]) انظر: المصدر السابق، جـ١، ص: ٨١- ٨٣ .
([١٥٨])المصدر السابق، جـ١ ب، ص: ٨٣ .

والطريق إلى اكتساب هذه الخصال هو اتباع الشريعة ، وأن ((تنزع عن نفسك القشور التي تعلقت عليها من صحبة الجسد، وتخلع الأمور واللباس التي أحاطت بها من الأمور الطبيعية والصفات الجسمانية، وتجلو عنها الصدأ الذي تركب عليها من أخلاط البدن وسوء الأخلاق وتراكم الجهالات وفساد الآراء، وتنحي عنها هذه الأشياء ليصفو لك اللب والمخ، وهو جوهر نفسك النيرة الشفافة الروحانية النورانية))[١٥٩].

ومن أراد الرقي فعليه بمجاهدة نفسه ليكون أهلا للعروج، ((فإن أردت يا أخي أن تعرج بروحك إلى هناك بعد فراق الجسد، فاجتهد قبل ذلك، واغسلها من درن الأخلاق الرديئة ووسخ الآراء الفاسدة، وأخرجها من ظلمات الجهالات المتراكمة، وجنبها الأعمال السيئة، وألبسها لباس التقوى، وزمها عن الانهماك في الشهوات الجرمانية والغرور باللذات الجسمانية))[١٦٠].

ثالثًا: أصول الرذائل :

يطلق الإخوان على الرذائل وصف أخلاق الشياطين، ويذكرون أن هناك ثلاث رذائل أساسية هي: الكبر، والحرص، والحسد. ومن هذه الرذائل الثلاث تتفرع رذائل كثيرة، وهي أصول وأمهات لسائر الخصال المذمومة والأخلاق الرديئة التي تتفرع منها الشرور والمعاصي كلها، وفي ذلك يقولون: ((واعلم – يا أخي – بأن هذه الخصال الثلاث هي أمهات المعاصي وأصول الشرور، ولها أخوات مشاكلات لها، وفروع وأغصان متفننات منها))[١٦١].

– **فمما يتفرع من الكبر:** عجب المرء برأي نفسه، والأنفة عن قبول الحق، وترك الإقرار به، وعدم الانقياد لأمر الآمر والناهي الواجب الطاعة، والتعدي والخروج عن الحد الواجب والحق اللازم، والظلم والجور عند القدرة في الحكومات، وترك الإنصاف في المعاملة، والتهاون في الواجبات، والإعراض عن اللوازم من الحقوق، والقحة والصلابة في الوجه في دفع الحق والعيان والضرورات والفحش والسفاهة في الخطاب، والجدال، واللجاج في

(١٥٩)المصدر السابق، جـ١ ب، ص: ٨٣ .
(١٦٠)المصدر السابق، جـ١ ب، ص: ٨٣ .
(١٦١) المصدر السابق، جـ١ ب، ص: ٧٦ .

الخصومات، والخرق، والنزق في العشرة، والحدة والطيش في التصرف، والغش والمكر في المعاملة، والاستصغار والاحتقار لأبناء الجنس، والاستطالة عليهم، والافتخار في الأمور بما خص من المواهب، والإنكار لفضل مَنْ فَضُلَ عليه، والبغي والعدوان، وما شاكلها من الخصال المذمومة والأخلاق الرديئة والأفعال السيئة والأعمال القبيحة[١٦٢].

وتساءل الإخوان عن الحكمة والفائدة في كون هذه الخصلة موجودة في الخليقة، مركوزة في الجبلة؟ وأجابوا بأن التكبر من كبر النفس، وكبر النفس من علو همتها، وعلو الهمة جعل في جبلة النفس لطلب الرياسة، وطلب الرياسة من أجل السياسة، وذلك أن الناس محتاجون في تصاريف أمورهم إلى رئيس يسوسهم على شرائط معلومة...، فإذا لم يكن الرئيس عالي الهمة، كبير النفس، لم يصلح للرياسة؛ وكبر النفس يليق بالرؤساء، ويصلح للملوك، وسياسة الجماعات؛ فأما الرعية والأعوان والأتباع والخدم والعبيد فلا يصلح لهم كبر النفس ولا يليق بهم.

ويؤكد الإخوان على أن الكبر في كل وقت وفي كل شيء ليس بأمر محمود، ولكن إذا استعمل كما ينبغي، في الوقت الذي ينبغي، بمقدار ما ينبغي، من أجل ما ينبغي، سمي ذلك محمودًا، فيكون عامل ذلك طلق النفس ذا مروءة، عالي الهمة عفيفًا كريمًا جميلًا دينًا، ويكون صاحبه محمودًا معظمًا مبجلًا مهيبًا. وأما التكبر عن قبول الحق وترك الإقرار بالواجب، والفسق عن أمر الرئيس، وترك الانقياد والإذعان للطاعة المفروضة فهو المذموم، وهو الشر والمعصية والمنكر.

ويؤكدون على هذا بقولهم: ((ينبغي لك – يا أخي – أن تعلم وتتيقن بأنك كما تريد وتحب وتشتهي من عبدك أن ينقاد لأمرك، وكذلك خادمك وأجيرك وتابعك وزوجك وولدك، ولا يتكبرون عليك، ولا يخرجون من أمرك، ولا يجاوزون نهيك، فهكذا ينبغي ويجب أن تكون لرئيسك، ومن هو فوقك في الأمر والنهي، حتى تكون عادلًا منصفًا محقًا ممدوحًا مثابًا مجازى ملتذًا فرحًا مسرورًا منعمًا مكرمًا))[١٦٣].

([١٦٢])المصدر السابق، جـ١ ب، ص: ٧٦، ٧٧ .
([١٦٣])المصدر السابق، جـ١ ب، ص: ٧٩ .

– **ومما يتفرع من الحرص:** الطمع الكاذب، وشدة الرغبة، والطلب الحثيث، والعجلة في السعي، وتعب البدن، وعناء النفس، وكد الروح في الجمع والادخار، والاستكثار والاحتكار من خوف الفقر، والبخل والمنع والشح واللؤم والنكد، وما يتبعها من الشؤم والخذلان، وقلة الانتفاع بالموجود، والحرمان من المذخور، والمضايقة في المعاملة، والمناقشة في المحاسبة، وسوء الظن بالأمين، والتهمة للثقات والمؤتمنين، والخيانة في الأمانة، وطلب الحرام، وارتكاب الفحشاء، وإضمار القلب على الإضرار، وإظهار الكذب لكتمان السر، والحيل في أسباب الطلب من البيع والشراء، والغش في الأمتعة، وقلة النصيحة في الصنائع، والحلف واليمين الكاذبة عند الاعتذار في الحكومات، وأقاويل الزور في أسباب الخصومات، والعداوة والتعدي في الحدود، وما شاكلها من الخصال المذمومة والأخلاق الرديئة والأقاويل الباطلة والأفعال القبيحة والعمال السيئة(١٦٤).

– وأما كون الحرص في طلب المرغوب فيه الموجود في الخليقة المركوز في الجبلة، فهو من أجل أن الإنسان لما خلق محتاجًا إلى مواد لبقاء هيكله ودوام شخصه مدة ما، وإبقاء صورته في نسله زمانًا ما، جعل في طبعه وجبلته الرغبة فيها والحرص في طلبها والجمع لها والادخار والحفظ لوقت الحاجة إليها، إذ كان ليس في كل وقت وفي كل مكان موجودًا ما يريده ويحتاج إليه. فإذا رغب الإنسان فيما يحتاج إليه، وطلب ما ينبغي له، وجمع مقدار الحاجة وحفظه إلى وقت الحاجة، ثم استعمل ما ينبغي كما ينبغي، وأنفق بقدر الحاجة، فهو يكون محمودًا عادلًا منصفًا محقًا مصيبًا مأجورًا ملتذًا مثابًا منعمًا فرحًا مسرورًا مكرمًا...؛ فإذا طلب ما لا يحتاج إليه كان مذمومًا، أو جمع أكثر مما يحتاج إليه كان متعوبًا، أو جمع ولم ينفق ولم يستعمل في وقت الحاجة إليه كان مقترًا محرومًا؛ فإن أنفق واستعمل فيما لا ينبغي كان مسرفًا مخطئًا جائرًا معاقبًا معذبًا(١٦٥).

– **ومما يتفرع من الحسد:** الحقد والغل؛ والعداوة والبغضاء، والبغي، والغضب، والتعدي والعدوان، وقساوة القلب وقلة الرحمة والفظاظة والغلظ، والطعن واللعن والفحشاء، والخصومة والشر والحرب والقتال، والمكر والحيلة والخداع والغدر والخيانة والسعاية والغيبة والنميمة

(١٦٤)المصدر السابق، جـ١ ب، ص: ٧٧ .
(١٦٥) المصدر السابق، جـ١ ب، ص: ٧٩ .

والزور والبهتان والكذب والمداهنة والنفاق والرياء، وتشتيت الشمل، وتفريق الجميع، وقطيعة الرحم، والبعد من الإخوان، ومفارقة الإلف، وخراب الديار، ووحشة الوحدة، والحزن والغم، وألم القلب، وهموم النفس، وعذاب الأرواح، وتنغيص العيش، وسوء المنقلب وخسران الدنيا والآخرة[١٦٦].

– وأما كون الحسد المركوز في الجبلة، الموجود في الخليقة، فهو من أجل التنافس في الرغائب من نعم الله، وذلك أن نعم الباري تعالى على خلقه كثيرة لا يحصي عددها إلا هو، ولم يمكن أن يجمع عددها كلها على شخص واحد، ففرقت في الأشخاص بالقسط؛ كما شاء ربهم– عز وجل– وضعها، وفضل بعضهم على بعض كما اقتضت حكمته، فلم يخل أحد من الخلق من نعم الله وآلائه، ولا استوفاها أحد من خلقه. فمن رأى على أحد من الخلق نعمة ليست عليه بعينها، فلينظر هل عليه نعمة ليست بعينها على ذلك الشخص، فيقابل هذه بتلك، ويشكر الله، ويسأله أن يديمها عليه. ومن رأى على أخيه نعمة ليس عليه مثلها، فليسأل الله تعالى من فضله، ولا يتمن زوال تلك عن أخيه، فإن ذلك هو الحسد بعينه، وهو المذموم الذي يكون الحاسد به معذبة نفسه، مؤلمًا قلبه، عدوًا لنعم الله على خلقه[١٦٧].

والجدير بالذكر أنه مع بساطة تناول إخوان الصفا لموضوع الرذائل فقد أكدوا – كما سبق الإشارة – على الميزان الذي يمكن من خلالة معرفة الرذيلة، ويكمن هذا الميزان في أن يُستعمل الخُلُق كما ينبغي، في الوقت الذي ينبغي، بمقدار ما ينبغي، من أجل ما ينبغي، فيكون بذلك محمودًا.

ومما يحسن أن نختم به بحثنا عن الأخلاق عند إخوان الصفا ما ورد عندهم من الإشارة إلى جملة من الرذائل والشهوات التي تتصف بها النفس مثل: شهوات المأكولات والمشروبات والشره والحرص والغضب والافتخار ... إلخ. ثم يقولون: ((وعلى هذا المثال وجدت ورأيت سائر أخلاقها الرديئة وخصالها المذمومة وأعمالها السيئة وأفعالها القبيحة وآرائها الفاسدة، فعملت عند ذلك أن هذه كلها نيران لا تخمد وحريق لا يطفأ، وأعداء لا يتصالحون، وحرب لا تهدأ، وقتال لا يسكن، وداء لا يبرأ، ومرض لا يشفى، وعناء طويل، وشغل لا يفرغ منه

(١٦٦)المصدر السابق، جـ١ ب، ص: ٧٧ .
(١٦٧)المصدر السابق، جـ١ ب، ص: ٧٩، ٨٠ .

إلى الموت. فشمرت عند ذلك بالعزم الصحيح والنية الصادقة، وشددت وسطي بإزار الحزم، وأخذت سلاح الاجتهاد، وارتديت براءة الورع، ولبست قميص الحياء، وتسربلت سربال الجد، ووضعت على رأسي تاج الزهد في الدنيا، وأثبت قدمي على التقوى، وأسندت ظهري إلى الله بالتوكل عليه، وجعلت شعاري الخوف منه والرجاء، وزممت قُوَى نفسي بالنهي، وفتحت عيني بالنظر إلى إشارة المعلم، وجعلت دليلي حسن الظن بربي، وسلكت منهاج السنة، وقصدت الصراط المستقيم للقاء ربي، وناديته نداء الغريق، ودعوته دعوة المضطر، وأقررت بالعجز والتقصير، وطرحت نفسي بين يديه؛ بلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وتضرعت إليه مثل الصبي إلى والده الشفيق الرفيق. فلما رآني ربي على تلك الحال سمع ندائي، وأجاب دعائي، ورحم ضعفي، وأعطاني سؤلي، وأمدني بجنوده، ودلني على مكايد أعدائي، فغزوتهم مع ملائكته، وأظفرني بهم، وأعانني عليهم، وحرسني من غرورهم، وأحرزني من خطواتهم، وسلمت من خطر كيدهم، وفزت بالغنيمة سالمًا غانمًا))[١٦٨].

([١٦٨])إخوان الصفاء ، الرسائل ، جـ١ب، ص: ٨٩، ٩٠ .

الخاتمة

أُوجِز فيما يلي أهم نتائج هذا البحث، والتي تتلخص في النقاط التالية:

أولا : تُعَدُّ جماعة إخوان الصفاء من أشهر الجماعات السرية، وقد ظهرت في منتصف القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) بالبصرة، وسعت إلى كسب الأنصار حولها، ووضعت المؤلفات الفلسفية الدينية، وبثتها بين المنتسبين إليها، وهي جماعة منظمة تعمل لغرض محدد، تلمح إليه، ولا تُصَرِّح به أمام من لا ينتمي إليها، بل لا يُصَرِّحُون به في رسائلهم إلا بكلام غامض وأسلوب رمزي يحتمل التأويلات المختلفة.

ثانيًا : رسائل إخوان الصفا اثنتان وخمسون رسالة في فنون العلوم والآداب المختلفة، ضَمَّنُوها خلاصة العلوم المعروفة عندهم، كعلوم الفلك والرياضيات والعَدَد والهندسة والطب والجغرافيا والأدب وعلم الحيوان... إلخ. وكتم مصنفو الرسائل أسماءهم؛ فاختلف الناس فيمن وضعها، فقال قوم: هي من كلام بعض الأئمة من نسل علي بن أبي طالب – رضي الله عنه –، وحدَّده بعضهم بالإمام الصادق، وحدَّده آخرون بأنه أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق. ونسبها بعضهم إلى مسلمة بن أحمد بن قاسم بن عبد الله المجريطي. وقال آخرون: هي من تصنيف بعض متكلمي المعتزلة في العصر الأول.

ثالثًا : بالإضافة إلى رسائل إخوان الصفا الاثنتين والخمسين والرسالة الجامعة فلهم بعض الكتب السرية الخاصة بهم، يستمدون منها علومهم، وهي المدارس الأربعة والكتب السبعة والجفران والرسائل الخمس والعشرون، وقد أخذ الإخوان علومهم من أربعة مصادر هي: الكتب المصنَّفة على ألسنة الحكماء والفلاسفة، والكتب المُنَزَّلة التي جاء بها الأنبياء، والكتب الطبيعية، والكتب الإلهية التي لا يمسها إلا المطهرون – كما يزعمون –.

رابعًا : في الرسائل يسعى إخوان الصفا سعيًا جديًّا لنشر الدعوة العلوية وإقامة نظام سياسي جديد، وهي تمثل جانبًا من مذهبهم الباطني. وهناك علاقة وثيقة بين الإخوان والقرامطة تلك الحركة التي لها ارتباط بالإسماعيلية، والتي كان هدفها محاربة الإسلام بكل الوسائل. واستخدم الإخوان قولهم بالظاهر والباطن ليكون ذريعة إلى الكذب على شرع الله، ومِعْولا لهدم الدين في نفوس المسلمين. إخوان الصفا مثاليون في فلسفتهم الأخلاقية

خامسًا: في الرسائل إشارات عابرة نستشف منها ميلا خفيًّا إلى المجوسية الفارسية والوثنية الإغريقية؛ حيث اطلع الإخوان على آراء الفلاسفة والوثنيين من المجوس وغيرهم، وزينوا مقالاتهم بما جمعوه من الآيات والأحاديث ليلبسوا على الناس، فكان فكرهم لا يتقيد بكتاب أو مذهب، وانتهت بهم نزعتهم التوفيقية والانتقائية إلى أن يروا في جميع المذاهب الفلسفية مذهبًا واحدًا يوافق جوهر الأديان، ونظروا إلى الأنبياء نظرهم إلى الحكماء، وساقوا أقوال الفئتين على أنها مؤيدة لأحكام متشابهة. وفي تعاليمهم رواسب من وثنيات قديمة مختلفة، ومع محاولتهم لإخفاء بعضها فيبدو منها إشارات وتصريحات كثيرة، كالقول بتأثير الكواكب والنجوم في أخلاق الناس، وهذا مما يتعارض مع عقيدة الإسلام، ويتنافى مع العقل والفطرة. كما أنهم يتابعون المتفلسفةَ الملاحدة في أنهم يجعلون الملائكةَ قوى النفس الصالحة، والشياطينَ قوى النفس الخبيثة، ويجعلون سجود الملائكة طاعة القوى للعقل، وامتناع الشياطين عصيان القوى الخبيثة للعقل.

سادسًا: أَوْلَى إخوان الصفا فلسفة الأخلاق أهمية كبرى، يشهد بذلك التسمية التي اختاروها لجماعتهم وما فيها من دلالة أخلاقية، وكذلك طبقاتهم ومراتب الارتقاء في دعوتهم، وقد استبعدوا من جماعتهم سيء الخلق، بل كانت غاية فلسفتهم العامة ومعارفهم الموسوعية أخلاقية، فالمعرفة عندهم كُرِّسَتْ من أجل غرس الفضائل وتكوين المواطن الصالح كنواة لدولة الخير.

سابعًا: مصدر الأخلاق عند إخوان الصفا مستمد من الأديان والمعارف في آن واحد، والمبادئ العامة التي يبنون عليها نظرياتهم في الأخلاق مقتبسة من الديانات المختلفة موحدة ومجوسية، وقد استخدموا الأسلوب الرمزي بمهارة فائقة؛ فطرحوا أفكارهم في قصص بارعة، تنتهي إلى تأييد نظرياتهم الفلسفية أو العلمية، وقد شابهت تلك القصص في بعض مقاطعها فصول من كليلة ودمنة ومن الثابت أنهم تأثروا بها الكتاب وأشاروا إلى بعض حكاياته.

وفي رسائلهم نزعة صوفية واضحة؛ فهم يميلون نحو الزهد والروحانية، ويرون أن نزول النفس إلى الجسم أدى إلى ضياع كمالاتها؛ ويحاولون بالمعرفة والفضيلة إثارة شوقها لمصدرها السامي.

ثامنًا : كان إخوان الصفا مثاليين في فلسفتهم الأخلاقية؛ وغاية الأخلاق عندهم دنيوية وأخروية، فالسلوك الحَسَن يسهم في عمران الدنيا ويفضي إلى السعادة في الآخرة. ولا يمكن لأحد أن يصعد إلى ملكوت السموات وسعة الأفلاك والدخول في زمرة الملائكة إلا بعد عناية شديدة بتهذيب نفسه وإصلاح أخلاقه وتصحيح اعتقاده؛ فيجتهد في إصلاح ما هو فاسد منها، ويجتنب ما هو مذموم بحسب ما يوجبه عقله، ويؤدي إليه اجتهاده.

تاسعًا : تعريفهم للأخلاق لا يخرج عن تعريف الفلاسفة والحكماء المسلمين؛ فالأخلاق هيئة راسخة في النفس يصدر عنها الفعل دون تفكير وترو، وهذه الأخلاق مركوزة في جِبِلَّة الإنسان وخِلْقته، وبذلك يسهل على كل عضو في الجسد إظهار الأفعال التي في جبلته.

عاشرًا : إذا كان إخوان الصفا قد أكَّدوا على تأثير الفطرة في الأخلاق، وقالوا بأن الأخلاق الفطرية مركوزة في الجبلة عندما يكون الإنسان جنينًا في بطن أمه، فقد قالوا في الوقت نفسه بإمكانية تغير الفطري أو تعديله أو تطويره؛ ذلك أن حياة الإنسان منذ الولادة تفعل فعلها في اكتساب ما هو محمود أو مذموم، فكل إنسان لديه استطاعة لعمل الخير واستطاعة أيضًا لعمل الشر. وأخلاق الإنسان كثيرة التغيير تتأثر بما يحدث له إبان رحلة عمره، وتتأثر كذلك بالتربية والمجتمع ... وغير ذلك من المؤثرات التي تُوجِد له خُلُقًا جديدًا وسجية أخرى. وهذا الخلق المكتسب بالعادة – مع طول الزمان – يصبح فطريًّا؛ فيصير طبعًا لازمًا له.

حادي عشر : نظر إخوان الصفا إلى الخير نظرة مطلقة مجردة من كل نفع عاجل أو آجل، فلا بد من فعل الخير للخير ولو كان للعدو. والأخيار هم الذين يعملون ما رسم لهم في النواميس الإلهية، ويفعلون ما أوجبته العقول السليمة، ولا يطلبون على ذلك عِوَضًا من جَرِّ منفعة أو دفع مضرة. فعند ذلك يقال لهم أخيار على الإطلاق. فهم يرون أن الخير يراد من أجل ذاته، فهو غاية قصوى كالسعادة. ويلاحظ أن هذه الفكرة من الأفكار الأجنبية التي تسربت إلى المسلمين من الخارج، وتكمن خطورتها في أنها تفصل فكرة الخير عن الثواب الإلهي الذي ينتظر صاحبه في الآخرة وهي من الأفكار التي شاعت في عالم التصوف، وتصدى لها علماء المسلمين.

ثاني عشر : اكتساب الأخلاق أمر ضروري في حياة الإنسان، وهو ليس بالأمر السهل؛ لأنه يتقرر بعوامل تؤثر فيه وجودًا وعدمًا وقوةً وضعفًا، فالأخلاق عند الناس ليست على درجة واحدة، وإنما تتفاوت في وجودها وفي درجتها من شخص لآخر، ويرى إخوان الصفا أن هناك أربعة أسباب تكمن وراء اختلاف الأخلاق، وهي: أخلاط البدن ونِسَب هذه الأخلاط، والمناخ وتربة البلاد وهواؤها، والعادة والمداومة على نوع معين من الأعمال والأفعال، وأحكام الكواكب والنجوم.

ثالث عشر : ذكر الإخوان أن الأخلاط الأربعة من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة لها دور في أمزجة الناس وأخلاقهم، وقد تابعوا مَنْ سبقهم في محاولة فهم السلوك البشرى بربطه بطبيعة المكونات التى يتشكل منها الجسد، إلا أن نظرية الأخلاط الأربعة قاصرة؛ لأنها مجرد انطباعات عقلية نظرية، ولا تقوم على أساس علمي سليم.

رابع عشر : كان لإخوان الصفا آراء جيدة في التربية وتأديب النشء، وفي كلامهم عن اختلاف الأخلاق بسبب العادة والمداومة على عملٍ ما إشارة إلى أن الأخلاق تُكْتَسَب من البيئة الاجتماعية، وتقوى بالمداومة عليها، وهم يرون – كذلك – أن الفطرة الإنسانية قابلة لكل شيء، وأن الخير والشر يُكْتسبان بالتربية، وليس للإنسان بفطرته ميل ثابت لا إلى الشر ولا إلى الخير، وإنما يسعد أو يشقى بما يُقَدِّم إليه أبواه ومعلموه. وتتضح أهمية ذلك في تهذيب الصبيان، لأن الطفل يولد ولديه استعداد لتقبل الأخلاق المختلفة، ومن ثم فالوالدان والمجتمع المحيط بالطفل مسئول عن توجيه أخلاقه وتطبيع سلوكه. وقد جاء في رسائلهم الدعوة إلى الاهتمام بتربية الصبيان منذ الصغر، والتدقيق في اختيار من يرافقهم؛ لما لذلك من أثر في أخلاقهم وطباعهم.

خامس عشر : ركَّز إخوان الصفا على نماذج عملية من الفضائل والرذائل، ومع بساطة تناولهم لهذا الموضوع فقد أكَّدوا على الميزان الذي يمكن من خلاله معرفة الفضيلة من الرذيلة، ويكمن هذا الميزان في أن يُستعمل الخُلُق كما ينبغي، في الوقت الذي ينبغي، بمقدار ما ينبغي، من أجل ما ينبغي، فيكون بذلك محمودًا. وأشاروا إلى أن معيار الفضيلة ومعرفة الخير من الشر يكمن في العقل والشرع، فعن طريقهما يكون التحسين والتقبيح.

قائمة المصادر والمراجع العربية

- أبو الحسن ظهير الدين علي بن زيد بن محمد بن الحسين البيهقي، الشهير بابن فندمه: تتمة صوان الحكمة، ط لاهور – الهند، ١٣٥١هـ
- أبو الفتح محمد بن عبدالكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني : الملل والنحل، تحقيق أمير علي مهنا – علي حسن فاعور، دار المعرفة ، بيروت – لبنان ، طبعة ٣ ، ١٩٩٣م
- أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير: البداية والنهاية، مكتبة المعارف – بيروت
- أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي: تلبيس إبليس، تحقيق د. السيد الجميلي، دار الكتاب العربي– بيروت، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م
- أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي: صيد الخاطر، تحقيق: د. عبد الرحمن البر، دار اليقين– المنصورة، ١٤١٣هـ ١٩٩٣م
- أبو الفرج غريغوريوس يوحنا بن هارون بن توما الملطي ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، تحقيق: أنطون صالحاني اليسوعي، دار الشرق، بيروت، ط: ٢، ١٩٩٢م
- أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد: تلخيص كتاب النفس، تحقيق وتعليق: الفرد . ل. عبري، مراجعة: د. محسن مهدي، تصدير: د. إبراهيم مدكور، المجلس الأعلى للثقافة– القاهرة، ١٩٩٤م
- أبو اليزيد العجمى (دكتور) : الأخلاق بين العقل والنقل، دار الثقافة العربية– القاهرة، ١٤٠٩هـ ١٩٨٨م
- أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م
- أبو حامد محمد بن محمد الغزالي: إحياء علوم الدين، دار المنهاج – السعودية ٢٠١١
- أبو حامد محمد بن محمد الغزالي: المنقذ من الضلال، تحقيق: د. عبد الحليم محمود، دار الكتب الحديثة، مصر

- أبـو حيـان التوحيـدي، علـي بـن محمـد بـن العبـاس: الإمتـاع والمؤانسـة، المكتبـة العصرية – بيروت، ١٤٢٤هـ
- أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه: السعادة، طبعة مصر، ١٩٣٨م
- أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه: تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، تحقيق: ابن الخطيب، المطبعة المصرية ومكتبتها، ١٣٩٨هـ
- أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا: رسالة فى الكلام على النفس الناطقة، ضمن رسـائل: أحـوال الـنفس، تحقيـق: د. أحمـد فـؤاد الأهـواني، دار بيبليـون- بـاريس، ١٣٧١هـ ١٩٥٢م
- أبـو علـي الحسين بـن عبـدالله بـن سينا: النجـاة ، طبـع بعنايـة محيـي الـدين صـبري الكردي، مطبعة السعادة – مصر طبعة ٢، ١٩٣٨م
- أبـو عيسـي محمـد بـن عيسـي الترمـذي :الجـامع الصحيحسـنن الترمـذي ، داراِحيـاء التراث العربي، بيروت
- أبو محمد عبد الحق بن سبعين المرسي الأندلسي: رسائل ابن سبعين، تحقيق: د. عبد الرحمن بدوي، الدار المصرية للتأليف والترجمة- القاهَرة، ١٩٥٦م
- أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري: الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة الخانجي- القاهرة
- أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي: الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، دار الآفاق الجديدة- بيروت، ط٢ ١٩٧٧م
- أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: الدكتور نزار رضا، دار مكتبة الحياة.
- أحمد بن عبد الحليم بن تيمية: درء تعارض العقل والنقل، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، نشر: جامعة الإمام محمد بن سعود، المملكة العربية السعودية، ط٢، ١٤١١هـ ١٩٩١م .
- أحمد بن عبد الحليم بن تيمية: مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، ط: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية – السعودية، ١٤١٦هـ ١٩٩٥م

- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني: لسان الميزان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م
- أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي: الفتاوى الحديثية، دار الفكر – بيروت
- إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم الباباني البغدادي: هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية استانبول ١٩٥١م، أعادت طبعه بالأوفست: دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان
- أفلوطين: تاسوعات أفوطين، نقله إلى العربية عن الأصل اليوناني: د. فريد جبر، مراجعةِ: د. جيرار جهامي ود. سميح دغيم، مكتبة لبنان ناشرون– بيروت، ١٩٩٧م
- جبور عبد النور (دكتور): إخوان الصفا، دار المعارف– القاهرة، ط٤، ١٩٨٣م.
- جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم الشيباني القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية –بيروت، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م
- جميل صليبا (دكتور): المعجم الفلسفى ، مادة أخلاق، دار الكتاب اللبناني – بيروت ١٩٧١ م
- جيمس ديورَانت: قصة الحضارة، تقديم: د. محيي الدّين صَابر، ترجمة: د. زكي نجيب محمُود وآخرين، دار الجيل، بيروت – لبنان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨م
- حامد طاهر (دكتور): الفلسفة الإسلامية في العصر الحديث مدخل وقضايا، مكتبة الزهراء – القاهرة، ١٩٩١م.
- حامد عبد السلام زهران (دكتور): علم النفس الاجتماعي، عالم الكتب– القاهرة، ط٥، ١٩٨٤م
- خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين– بيروت، ط: ١٥، ٢٠٠٢ م
- د. وجيه أحمد عبد الله (دكتور): الوجود عند إخوان الصفا، دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية، ١٩٨٩م

- رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، طبعت بعناية الشيخ نور الدين بن جيواخان الكتبي، مطبعة نخبة الأخيار، بومباي- الهند، ١٣٠٥هـ
- رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفا، إعداد وتحقيق: د.عارف تامر، منشورات عويدات- بيروت، باريس، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م
- صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي: الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث – بيروت، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م.
- عادل العوا (دكتور): حقيقة إخوان الصفا، الأهالي للطباعة والنشر- دمشق، ١٩٩٣
- عارف تامر (دكتور): ابن سينا في مرابع إخوان الصفا، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر- بيروت، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م
- عباس محمود العقاد: ابن رشد، دار المعارف- القاهرة، ط٦، ١٩٩٢م
- عبد الأمير شمس الدين (دكتور): الفكر التربوي عند إخوان الصفاء من خلال رسائلهم، الشركة العالمية للكتاب- بيروت، ١٩٨٨م
- عبد الرحمن النقيب (دكتور): فلسفة التربية عند ابن سينا (رسالة دكتوراة)، تقديم: د٠ سعيد إسماعيل على، سلسلة المكتبة العربية للدراسات التربوية (٥)، مجموعة أعلام الفكر التربوى العربى والإسلامى (١) دار الثقافة للطباعة والنشر- القاهرة، ١٩٨٤م
- عبد اللطيف محمد العبد (دكتور): الإنسان في فكر إخوان الصفا،مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة، ١٩٧٦م
- عبد اللطيف محمد العبد (دكتور): المانوية، دار النهضة العربية- القاهرة، ١٣٩٦هـ١٩٧٦.
- عبد المقصود عبد الغنى (دكتور): أصول العقيدة الإسلامية، مكتبة الزهراء – القاهرة ١٤٠٦هـ
- ف. بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة: حمزة طاهر، دار المعارف- القاهرة، ط٥، ١٩٨٣م
- فيصل بدير عون (دكتور): دراسات فى الفلسفة الخلقية، د. دن، د.ت

- محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين بن محمد المحبي: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، دار صادر – بيروت
- محمد جبر (دكتور): النزعة الإنسانية في فلسفة إخوان الصفا، دار دمشق- دمشق- سوريا، ١٩٩٣م
- محمد عبد الله الشرقاوى (دكتور): دراسات فى العقيدة الإسلامية، مكتبة الزهراء – القاهرة ١٤١٠ هـ ١٩٨٩م
- محمد عزيز الحبابى (دكتور): الشخصانية الإسلامية، دار المعارف- القاهرة، ١٩٨٣م
- محمود إسماعيل عبد الرازق (دكتور): إخوان الصفا رواد التنوير في الفكر الغربي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع- القاهرة، ١٩٩٨
- مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي القسطنطيني المشهور باسم حاجي خليفة أو الحاج خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مكتبة المثنى – بغداد، ١٩٤١م
- يوسف بن إليان بن موسى سركيس: معجم المطبوعات العربية والمعربة، مطبعة سركيس بمصر ١٣٤٦هـ ١٩٢٨م.